

مركز جيل البحث العلمي

مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية



مجلة علمية دولية محكمة تصدر شهريا عن مركز جيل البحث العلمي

Lebanon – Tripoli: Branche P.O. Box Abou Samra - www.jilrc.com - social@journals.jilrc.com



ISSN 2311-5181 DOI Prefix:10.33685/1316 العام العاشر – العدد 96 – أبريل 2023

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التعريف بالمجلة:

مجلة علمية دولية محكمة ومفهرسة عالميا تصدر شهريا عن مركز جيل البحث العلمي تعنى بالدراسات الإنسانية والاجتماعية، بإشراف هيئة تحرير مشكلة من أساتذة وباحثين وهيئة علمية تتألف من نخبة من الباحثين وهيئة تحكيم تتشكل دوريا في كل عدد.

اهتمامات المجلة وأبعادها:

مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية عبارة عن مجلة متعددة التخصصات، تستهدف نشر المقالات ذات القيمة العلمية العالية في مختلف مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية.

تعرض المجلة جميع مقالاتها للعموم عبر مواقع مركز جيل البحث العلمي، بهدف المساهمة في إثراء موضوعات البحث العلمي.

مجالات النشر بالمجلة:

تنشر المجلة الأبحاث في المجالات التالية: علم النفس وعلوم التربية والأرطوفونيا، علم الاجتماع، الفلسفة التاريخ، علم المكتبات والتوثيق، علوم الإعلام والاتصال، علم الآثار.

تنشر مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية البحوث العلمية الأصيلة للباحثين في هذه التخصصات كافة مكتوبة باللغة العربية أو الفرنسية أو الإنجليزية.

هيئة التحرير:

- أ.د. سامية ابريغم (جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، الجزائر)
أ.د. عاصم شحادة علي (الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا)
أ.د. علي صباغ (جامعة قسنطينة 2، الجزائر)
د. حنان شعشوع محمد الشّبري (جامعة الملك عبد العزيز، المملكة العربية السعودية)
د. صونيا عيواج (جامعة باتنة 1، الجزائر)
د. يزيد شويعل (جامعة المدية، الجزائر)
د. يوسف جاب الله (جامعة المدية، الجزائر)

التدقيق اللغوي:

- د. عبلة حسن (جامعة لينكولن، نبراسكا، الولايات المتحدة الأمريكية)
د. فاتن عدّي (جامعة قسنطينة، الجزائر)

رئيس اللجنة العلمية: أ.د. سامية شينار (جامعة باتنة 1، الجزائر)

اللجنة العلمية:

- أ.د. أبكر عبد البنات آدم (جامعة بحري، السودان)
أ.د. بالموشي عبد الرزاق (جامعة الوادي، الجزائر)
د. بن حجوبة حميد (جامعة مستغانم، الجزائر)
د. زين العابدين عبد الحفيظ (جامعة خميس مليانة، الجزائر)
د.عبد الله ملوكي (جامعة سطيف 2، الجزائر)
د.علة المختار (جامعة الجلفة، الجزائر)
د.محمد البشير رازقي (كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس)
د. نجوى نايف عبد النبي شكوكاني (الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا)
د.هاني إسماعيل رمضان (جامعة جيرسون، تركيا)

أعضاء اللجنة التحكيمية الاستشارية لهذا العدد:

- أ.د. صالح نهيروهي (جامعة واسط، العراق).
أ.د. مسعودي طاهر (جامعة الجلفة، الجزائر).
د. إبراهيم إسماعيل عبده محمد (جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية).
د. إخلص محمد عبد الرحمن (جامعة الجزيرة، السودان).
د. أسماء سالم علي عربي (الجامعة الأسمرية، ليبيا).
د. اليسع حسن أحمد (جامعة طرابلس، ليبيا).
د. بن حجوبة حميد (جامعة مستغانم، الجزائر).
د. سعيد علي (جامعة نغاونديري، الكاميرون).
د. شّاللي لخضر (المركز الجامعي آفلو، الأغواط، الجزائر).
د. لطيف نجاح شهيد القصاب الفتلاوي (جامعة كربلاء، العراق).
د. يزيد شويعل (جامعة المدية، الجزائر).

شروط النشر



تقبل المجلة الأبحاث والمقالات التي تلتزم الموضوعية والمنهجية، وتتوافر فيها الأصالة العلمية والدقة والجدية وتحترم قواعد النشر التالية :

- أن يكون البحث المقدم ضمن الموضوعات التي تعنى المجلة بنشرها.
- ألا يكون البحث قد نشر أو قدم للنشر لأي مجلة، أو مؤتمر في الوقت نفسه، ويتحمل الباحث كامل المسؤولية في حال اكتشاف بأن مساهمته منشورة أو معروضة للنشر.
- أن تحتوي الصفحة الأولى من البحث على:
 - عنوان البحث باللغة العربية والإنجليزية.
 - اسم الباحث ودرجته العلميّة، والجامعة التي ينتمي إليها، باللغة العربية والإنجليزية.
 - البريد الإلكتروني للباحث.
 - ملخّص للدراسة في حدود 150 كلمة وبحجم خط 12، باللغة العربية والإنجليزية.
 - الكلمات المفتاحية بعد الملخص.
- أن تكون البحوث المقدمة بإحدى اللغات التالية: العربية، الفرنسية والإنجليزية.
- أن لا يزيد عدد صفحات البحث على (20) صفحة بما في ذلك الأشكال والرسومات والمراجع والجداول والملاحق.
- أن يكون البحث خالياً من الأخطاء اللغوية والنحوية والإملائية.
- أن يلتزم الباحث بالخطوط وأحجامها على النحو الآتي:
 - اللغة العربية: نوع الخط (Traditional Arabic) وحجم الخط (16) في المتن ، وفي الهامش نفس الخط مع حجم (12).
 - اللغة الأجنبية: نوع الخط (Times New Roman) وحجم الخط (14) في المتن، وفي الهامش نفس الخط مع حجم (10).
 - تكتب العناوين الرئيسية والفرعية للفقرات بحجم 16 نقطة مثلها مثل النص الرئيسي لكن مع تضخيم الخط.
- أن تكتب الحواشي بشكل نظامي حسب شروط برنامج Microsoft Word في نهاية كل صفحة.
- أن يرفق صاحب البحث تعريفا مختصرا بنفسه ونشاطه العلمي والثقافي.
- عند إرسال الباحث لمشاركته عبر البريد الإلكتروني، سيستقبل مباشرة رسالة إشعار بذلك .
- تخضع كل الأبحاث المقدمة للمجلة للقراءة والتحكيم من قبل لجنة مختصة ويلقى البحث القبول النهائي بعد أن يجري الباحث التعديلات التي يطلبها المحكمون.
- لا تلتزم المجلة بنشر كل ما يرسل إليها .

ترسل المساهمات بصيغة الكترونية حصراً على عنوان المجلة :

social@journals.jilrc.com

الفهرس

الصفحة

- 7 • الافتتاحية
- 9 • الأداء الوظيفي بين التقليد والحداثة: رشيد بونا، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، المغرب.
- 17 • المجتمع والمعنى: مدخل إلى السميائيات الاجتماعية: ابراهيم مهديوي - محمد هموش، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب.
- 35 • النزعة التاريخية: نشوء الشمولية في الفكر الاجتماعي والنظم السياسية: لوصيف رحومة، جامعة المنستير، تونس.
- 47 • الباي حسين بن علي ورجال القلم، بين التشريع المذهبي والتوظيف السياسي لبناء الدولة: صدق السلامي، جامعة الزيتونة، تونس.
- 65 • ابن خلدون وتيريون لانستر وسبيل البحث عن العدالة: عصر وسيط جديد والموروث الخلدوني في صراع العروش: محمد البشير رازقي، المعهد العالي للعلوم الانسانية، جندوبة، تونس.
- 83 • La restauration des monuments archéologiques: Arc de Volubilis comme exemple, Heddad Mounir, Maroc.

الافتتاحية

7

باسم الله المولى الأجلّ سبحانه له الحمدُ في الأولى والآخرة، نستفتحُ بالذي هو خير، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير.

عزيزي القارئ ها هو العدد السادس والتسعون (96) من مجلة "جيل العلوم الانسانية والاجتماعية" يرى النور في شهر أبريل 2023، بعد مساهمة العديد من الباحثين المتميزين

ببإقامة من البحوث المحكّمة، جاءت متنوعةً بين تخصصات ومجالات بحثية متعددة.

هذا وتبقى مجلتكم معلنةً استمرار نهجها التنوعي لإيصال هدفها العلمي لأكبر عدد ممكن من الباحثين في أقطار متنوعة.

وقبل الختام، تودّ مجلتنا أن تشكر، وترحب، وتحنفي...

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل،،،

رئيس التحرير / د. جمال بلبكي

**تخلي أسرة تحرير المجلة مسؤوليتها عن أي انتهاك لحقوق الملكية الفكرية
لا تعبر الآراء الواردة في هذا العدد بالضرورة عن رأي إدارة المركز
© جميع الحقوق محفوظة لمركز جيل البحث العلمي**

الأداء الوظيفي بين التقليد والحداثة

Fonctionnalité entre tradition et modernité

رشيد بونا/جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، المغرب

Rachid Bouna / Université Abdelmalek Saadi Tetouan, Maroc

ملخص:

يتوقف نجاح أي مؤسسة على أداء موظفيها، ولكي يكون هذا الأداء فعالا يستوجب توفر بعض الشروط كتحديد أنشطة العمل والتصميم المناسب لها والمواصفات المطلوبة في الفرد الذي يقوم بتأدية العمل، حيث يعتبر هذا الأخير أحد مقومات الإنتاج الأساسية، ولذا يجب على الإدارة أن تسعى لتحقيق كفاءة أداء موظفيها والعمل على إزالة ما يعيقهم ويؤثر على إنتاجيتهم، ويتم ذلك من خلال إشراكهم في اتخاذ القرارات، وتقديم الحوافز لهم سواء كانت مادية أو معنوية وهذا ما يتطلب وجود إدارة فعالة للأداء تتمثل في مجموعة من العمليات المتكاملة والمتراصة من تخطيط، وتوجيه وتشخيص، وتقييم، وتحسين، إذا كان الأداء لم يصل إلى المستوى المطلوب.

الكلمات المفتاحية: محددات الأداء الوظيفي - أنماط الأداء الوظيفي - طرق تقييم الأداء الوظيفي.

Résumé :

Le succès de toute institution dépend de la performance de ses employés, et pour que cette performance soit efficace, certaines conditions doivent être remplies, telles que la définition des activités de travail, la conception appropriée pour celles-ci et les spécifications requises chez l'individu qui effectue le travail, car ce dernier est considéré comme l'un des ingrédients de base de la production, et donc la direction doit chercher à atteindre l'efficacité La performance de ses employés et travailler à supprimer ce qui les entrave et affecte leur productivité, et cela se fait en les impliquant dans prise de décision, en leur fournissant des incitations, qu'elles soient matérielles ou morales, et s'améliorer, si la performance n'est pas à la hauteur.

Les mot clé : Déterminants de la performance au travail - Modèles de performance au travail - Méthodes d'évaluation de la performance au travail.

مقدمة :

لم تستطع العلوم الاجتماعية لحد الآن اكتشاف القوانين السببية الثابتة التي تعرفها العلوم الطبيعية، ولم تتمكن من بناء وتكوين القوانين الواضحة التي تفسر الأشياء التي تدرسها تفسيراً منطقياً وعلمياً، وذلك لصعوبة حقولها الدراسية وكثرة العوامل والمتغيرات التي تؤثر فيها ودراستها لجوانب المجتمع المختلفة التي يلعب فيها الإنسان دوراً مهماً في عملية تنظيمها وتحديد قوانينها ونشاطاتها¹.

10

عندما يتعلق الأمر بإنجازات المجتمع المعاصر، فلا يمكن عزوها إلى عامل واحد فقط، بل كل العناصر والمكونات المختلفة لهذه المجتمعات مختلطة ومتكاملة مع بعضها، حيث تعتبر المؤسسة التنظيمية مجتمعا صغيراً يسعى إلى استثمار الموارد المختلفة لتحقيق الأهداف الرئيسية والمعلنة، والتي يمثل العنصر البشري مواردها الأساسي في جميع مراحل النمو والتقدم.

ويعد الأداء الوظيفي مكوناً رئيسياً في العمليات الإدارية والتنظيمية لكل مؤسسة، وجزءاً من الحياة في التنظيم، لأنه مرتبط بمن يديرون عملية الإنتاج ويحولون موادها الخام إلى مواد يمكن استهلاكها، كما أن أهمية أداء العمل لا يعتمد على مستوى التنظيم فقط، ولكن على نجاح البرنامج الذي تم تسطيره من طرف المؤسسين للتنظيم.

يتكون الأداء من مجموعة من العناصر، بعضها يتعلق بالمعرفة الوظيفية، وبعضها يتعلق بجودة وكمية العمل، والمثابرة، والثقة، والوقت، والتكلفة، ومن أجل تحسين الأداء وتحسين مستواه، تجري الإدارة عملية تقييم من وقت لآخر بناءً على أسس علمية وعملية مدروسة جيداً لتحقيق أهدافها، ذلك أن هناك العديد من النظريات التي تشرح هذا الأداء الوظيفي، وأشهرها النظرية الكلاسيكية للتنظيم الإداري المتأثر بالثورة الصناعية، والتي تتميز بسيطرة الناس على الآلات، وبعدها نظرية العلاقات الإنسانية التي جاءت مناقضة لها ووجهت الأنظار للجانب الإنساني للفاعل.

قبل إعطاء تعريف الأداء الوظيفي، يجب تقديم تعريف للأداء بالمعنى العام، حيث تم تعريفه كونه "انعكاس لكيفية استخدام المؤسسة للموارد المالية والبشرية، واستغلالها بكفاءة وفعالية بصورة تجعلها قادرة على تحقيق أهدافه"².

يشير الأداء الوظيفي إلى درجة الإنجاز وإتمام المهام التي تشكل وظيفة الفرد، ويعكس مدى نجاح الفرد في تحقيق أو تلبية متطلبات الوظيفة، وغالباً ما يكون هناك ارتباط وتداخل بين الأداء والجهد، كما أن هذا الأخير يشير إلى الطاقة التي يتم إنفاقها، بينما يتم قياس الأداء من حيث النتائج التي يحققها الفرد، يعبر مفهوم الأداء الوظيفي عن جهد الفرد بدءاً من الكفاءة والوعي بالدور، مما يشير إلى درجة الإنجاز وإكمال المهام التي تشكل وظيفة الفرد.

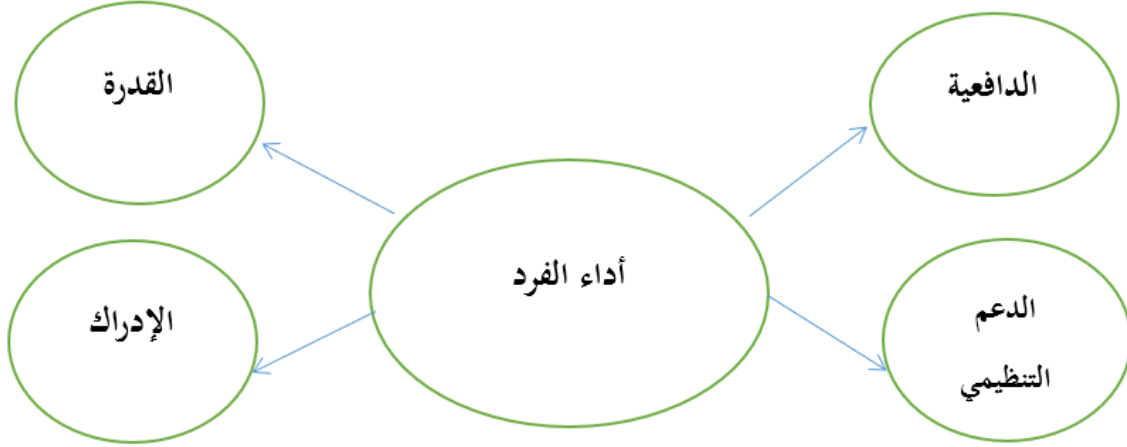
يمكن القول أن مفهوم الأداء الوظيفي يدور حول التأثير الصافي لجهد الفرد، بدءاً من الكفاءة والوعي بدور أو مهمة، وبالتالي يشير إلى درجة الإنجاز وإكمال المهام التي تشكل وظيفة الفرد • أداء الوظيفة، باعتباره المنتج النهائي لجميع الأنشطة في المؤسسة، هو أنه يحتل مكانة خاصة في أي مؤسسة لأن هيكل المنظمة يكون أكثر استقراراً واستمرارية في ظل وجود أداء متميز.

¹ Andresk .S ,L .Method and Substantive theory in Max Weber .in British Journal of Sociology XV. 1.1964.

² إبراهيم ابراس، البحث الاجتماعي قضاياها مناهجه وإجراءاته، مراكش، منشورات كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، سلسلة الكتب العدد 10-1944 الصفحة 174 - بتصرف -

محددات الأداء الوظيفي¹:

يحيط أداء الفرد بالعديد من المحددات المترابطة والمتداخلة، ومن أجل إدارة الفرد بفعالية، من الضروري أولاً فهم العوامل والمحددات التي تحدد طبيعة سلوك الفرد في أداء مسؤوليات الوظيفة، أداء الفرد هو القدرة على العمل والتحفيز على العمل نتيجة التفاعل مع درجة الدعم التنظيمي كما هو موضح بالصيغة الآتية:



الدافعية:

تعرف الدافعية بأنها منبع السلوك ووقود الأداء، وتشير إلى مدى قوة الرغبة لدى الفرد للقيام بمهام العمل المحددة، والاندفاع الذاتي والفوري لأداء هذه المهام.

القدرات:

عبارة عن الخصائص الشخصية التي يستخدمها الفرد العامل في أداء عمله، مثل: القدرة على القيام بالعمل كما هو مخطط له والقدرة على الاتصال لتحسين النتائج من خلال اكتساب أكبر قدر من المعلومات، وأيضا القدرة على الاستيعاب والفهم الصحيح لما هو مطلوب للقيام بالعمل بشكل صحيح، هذه القدرات لا تتغير عبر فترة زمنية قصيرة، ويمكن بناء هذه القدرات من خلال عملية التدريب و التعلم، ويجب أن تكون هذه القدرات متناسبا مع الوظيفة التي يتم أداؤها.

الدعم التنظيمي:

يشير الدعم التنظيمي إلى الدرجة التي تهتم بها المنظمة برفاهية ورفاهية أعضائها من خلال معاملتهم بإنصاف ومساعدتهم في حل المشكلات والاستماع إلى شكاواهم.

بمعنى آخر، يأخذ الدعم التنظيمي شكل القيم التنظيمية التي تركز على الأفراد الإيجابيين، وتقدم المساعدة والمساهمة، وتعتني بهم وبصحتهم العقلية، والتي تتجلى على أنها فاعلية إيجابية وتنظيمية من حيث الاستمرارية. ينعكس الاهتمام والاهتمام في تصور الفرد لهذا الدعم والدعم.

¹ زيد صالح حسن سميع، أثر الثقافة التنظيمية على الأداء الوظيفي، رسالة ماجستير، جامعة حلوان، اليمن، 2009، ص: 97-101.

الإدراك:

يشير الإدراك إلى العملية المعرفية الأساسية لتنظيم المعلومات، أو العملية التي يتلقى الفرد من خلالها المؤثرات الخارجية ويفسرها استعداداً لترجمتها إلى سلوك معين، لذا فإن هذه العملية تكمن وراء جميع العمليات الأخرى التي بدونها لا يمكن للفرد أن يدرك أو يتعلم، ملاحظة الاختلافات في الإدراك بين الأفراد، من الضروري فهم قدرات الموظفين والطريقة التي تتلقى بها مؤسستهم المعلومات.

أنماط الأداء الوظيفي:

عرفت نظريات نماذج الأداء الوظيفي تطوراً كبيراً منذ ظهورها، ويمكن إبراز أهم هذه النظريات على الشكل الآتي:¹

➤ أداء المهمة والأداء السياقي:

● أداء المهمة:

نموذج أداء المهمة هو ملخص للأبعاد التي تعبر عن الأنشطة والسلوكيات التي تشير إلى مدى نجاح الفرد في إنجاز مجموعة محددة من المهام التي ترتبط ارتباطاً مباشراً بوظيفته، يتضمن النموذج أبعاد الكفاءة التقليدية المعبر عنها من حيث الأداء والإتقان والكفاءة والوقت حتى الانتهاء، ذكر بعض الباحثين أن الأبعاد السابقة أكثر فاعلية في التنبؤ بأداء الأفراد في قطاع السلع، في حين أن المنظمات ذات الطابع الخدمي لا تشمل أداء الأفراد بشكل كامل، لذا فإن البحث المهتم بمؤشرات الأداء يحاول تحديد أبعاد أخرى أكثر تنبؤاً بالأداء الفردي في تنظيم أنشطة الخدمة.

ومن أهم هذه الأبعاد معرفة جميع جوانب الوظيفة، والالتزام الوظيفي، والإبداع والابتكار في أداء الوظيفة، واتخاذ قرارات وقرارات وظيفية جيدة، وتمثل أهم هذه الأبعاد في الإلمام بكل جوانب الوظيفة والالتزام الوظيفي والإبداع والابتكار في أداء الوظيفة وحسن إصدار الأحكام والقرارات المرتبطة بالوظيفة.

● الأداء السياقي:

يسمى بعض الباحثين أنماط الأداء السياقي بأنماط الأداء خارج الدور وذلك لعدم اتصالها مباشرة بالأداء وإنما تقيس جوانب الأداء التي لا ترتبط بمهام محددة، وقد أشارت الأبحاث إلى الدرجة التي يسهم فيها العاملون في سياق العمل وبشكل غير مباشر في - تعظيم وزيادة فعالية التنظيم، وتصنف بعض الدراسات الأداء السياقي إلى مجموعتين تضم المجموعة الأولى عدداً من الأبعاد التي من شأنها تعزيز أداء المهام المحددة (العمل الشاق، التطوع، الانتماء للتنظيم، تأييد الأهداف التنظيمية) بينما تضم المجموعة الثانية عدداً من الأبعاد التي تيسر التفاعل بين الأفراد (التعاون، مساعدة الآخرين).

● الأداء السليبي والأداء المتكيف:

يشير الأداء السليبي إلى تلك السلوكيات التي تتسبب في اختلال وظيفي للفرد في إكمال مهام العمل، والرغبة في الاستقالة وترك العمل هي السلوكيات التي تتنبأ بشكل أفضل بسلوكيات الأداء السلبية حيث يبدأ الفرد في صرف الانتباه عن مهمة العمل الموكلة إليه، والبقاء بعيداً عن عمله، ثم يبدأ الفرد في التغيب عن العمل دون سبب، ويصبح أداءه غير مثالي وإنتاجيته منخفضة.

¹ زيد صالح حسن سميع، أثر الثقافة التنظيمية على الأداء الوظيفي، رسالة ماجستير، جامعة حلوان، اليمن، 2009، ص: 91-97.

○ الأداء المتكيف: أصبح الأداء المتكيف أكثر حضوراً في ظل التغيير السريع في متطلبات العمل الناجم عن الابتكارات التكنولوجية، الاندماج، إعادة الهيكلة، تقليص حجم التنظيم، الذي يستلزم قدرة الفرد على التعلم السريع والتكيف مع الوضع الجديد ليكون قادراً على المنافسة على الوظائف والمهام المستحدثة.

ويشير الأداء المتكيف إلى ذلك السلوك الذي يعبر عن مدى كفاءة الفرد وقدرته على تغيير سلوكه وذلك لمقابلة متطلبات التغيير في البيئة والانتقال المستمر من حال إلى آخر.

تقييم الأداء الوظيفي:

طرق تقييم الأداء الوظيفي:

يمكن تقسيم طرق تقييم الأداء إلى مجموعتين هما:

➤ طرق التقييم التقليدية:

هي الطرق التي تعتمد على أحكام المقيمين سواء المشرف المباشر أو الإدارة، ومن هذه الطرق التقليدية التي يمكن الاستفادة منها في وضع مقاييس تقييم الأداء كما يلي:

● طريقة الترتيب البسيط:

تعد هذه الطريقة من أقدم طرق تقييم الأداء وتعتمد على ترتيب الأفراد العاملين بالتسلسل، حيث يقوم المقيم بإعداد قائمة بأسماء العاملين معه ويبدأ المقيم باختيار أفضل الموظفين أداءً وذكر اسمه في أعلى القائمة ثم اختيار أسوأ العاملين أداءً مع ذكر اسمه في أسفل القائمة، ومما يؤخذ على هذه الطريقة هو صعوبة معرفة من يكون بين هؤلاء الأفضل، كما تبدو سلبية هذه الطريقة في احتمال التحيز من قبل المقيم في عملية الترتيب، ومن مزاياها سهولة استخدام هذه الطريقة وتوضيحها للأفراد العاملين ويصلح استخدامها في التنظيمات الصغيرة الحجم.

● طريقة المقارنة المزدوجة:

في هذه الطريقة، يقارن المقيم كل عامل بجميع العاملين في نفس المجموعة الذين يتم تقييمهم أيضاً، على سبيل المثال، إذا كان هناك خمسة أشخاص، فقم بتقييم الشخص الأول مقابل الشخص الثاني والثالث والرابع والخامس، أي يجب مقارنة كل موظف بكل موظف في المؤسسة، ويجب تسجيل كل منهم عدد المرات التي سيتم متميزة حتى تعرف من هو الأفضل.

● طريقة التدرج:

وفقاً لهذه الطريقة، يتم تصنيف الأفراد العاملين، بحيث تمثل كل درجة مستوى معين من الأداء، وقد تكون التصنيفات التالية ممكنة: أداء مرضي، وأداء غير مرضي، وأداء متميز، يتم تحديد هذه التصنيفات من قبل الإدارة أو المقيمين، ثم تتم مقارنة أداء الأفراد بهذه التصنيفات المحددة مسبقاً، حيث يتم تصنيف كل شخص وفقاً لمدى أدائه الجيد.

● طريقة التدرج البياني:

تعتبر هذه الطريقة الأكثر شيوعاً والتي تعتمد صفات محددة في المقارنة وفي تقييم العاملين ويقاس أداء الموظف وفق معايير محددة أي تحديد الصفات التي بموجبها يتم تقييم العاملين مثل نوعية الأداء وكمية الأداء ومن ثم يتم تحديد أوزان للتقديرات بالتدرج كالاتي:

1 ضعيف، 2 مقبول، 3 جيد، 4 جيد جدا، 5 ممتاز.

ثم يتم تصميم جدول يبين الصفات موضع التقييم للموظفين المطلوب تقييمهم، وعليه يتم تجميع درجات كل فرد لكل صفة من هذه الصفات، ويستخدم الشخص القائم بالتقييم من إجراء المقارنة بين الأفراد بالاعتماد على الدرجة النهائية التي يحصل عليها كل منهم.

إن هذه الطريقة تستخدم مجموعة من الصفات والسلوكيات وكذلك المواصفات المطلوبة للعمل، وعلى المقيم أن يؤثر أو يختار العبارة أو الصفة التي تصف أداء الأفراد العاملين، ويكون تأشير المقيم إما نعم أو لا، وعند إتمام قوائم المراجعة تذهب إلى إدارة الأفراد لتحليلها وتحديد الدرجات لكل عامل من العوامل المحددة في القائمة حسب درجة أهميته.

• طريقة المراجعة الميدانية:

تتطلب هذه الطريقة قيام ممثل عن إدارة الموارد البشرية بإجراء مقابلات ميدانية لمدرء الإدارات العاملة في المنظمة للاستفسار عن أداء العاملين ومناقشتهم، وأخذ البيانات والمعلومات التفصيلية على أن يعد قائمة بالعاملين، ويتم ترتيبهم حسب أدائهم، ويعرضها على المدرء لمراجعتها وإدخال تعديلات عليها، ومن فوائد هذه الطريقة أنها تتوخى الحيادية في تقييم الفاعلين من قبل إدارة الموارد البشرية، إلا أن تدخل إدارة الموارد البشرية في تقييم الفاعلين قد يثير حفيظة المدرء والمشرفين إلى جانب استغراق هذه الطريقة زمنا طويلا.

• طريقة الاختيار الإجباري:

الهدف الأساسي من استخدام هذه الطريقة هو تقليل عامل التحيز الشخصي عن طريق إيجاد نظام يقوم بتزويد المقيم بمجموعة من عوامل التقييم ويطلب منه إعادة ترتيبها حسب تناسبها مع الإدارة والتي على العامل إظهارها، وهذه التقييمات للصفات تجمع من قبل إدارة الموارد البشرية وتعطي لها درجات أو أوزان حيث تكون سرية وغير معروفة للمقيم وهذا بدوره من مميزات هذه الطريقة.

• طريقة المواقف الحرجة:

تعد هذه الطريقة من الطرق التي تم تطويرها في فترة متأخرة، وبموجب هذه الطريقة يحتفظ الرئيس المباشر بسجل يطلق عليه الأداء حيث تدون فيه الوقائع أو الأحداث الجوهرية التي تواجه الفرد في عمله وكيفية سلوكه، يقوم الرئيس المباشر بمسك سجل كل مرؤوس يضم جزأين أحدهما يمثل نقاط القوة والآخر يمثل نقاط الضعف، ويدون بصورة دورية جميع البيانات المتعلقة بأداء الفرد سواء كانت هذه المواقف لصالحه أو لضرده، بهذا يتوفر للرئيس الحكم السليم على كل فرد وفقا للعوامل المذكورة في سجل أدائه.

• طريقة المقالة:

وفقا لهذه الطريقة يقوم المقيم بكتابة تقارير تفصيلية يصف فيها إنجازات وأداء العاملين بطريقة إنشائية يختارها على أن يلتزم بمواضيع معينة ككمية ونوعية الإنتاج ومعرفته بالعمل والقدرات ونقاط القوة والضعف في الأداء.

➤ طرق تقييم الأداء الحديثة: ¹

¹ يوسف حجيم الطائي، مؤيد عبد الحسين الفضل، وهاشم فوزي العبادي، إدارة الموارد البشرية، دار الواروق، الأردن، 2006، ص: 249-253.

نظرا لأهمية عملية تقييم الأداء للفرد والتنظيم، فلقد تواصلت الجهود في تطوير طرق وأساليب جديدة لتقييم أداء الأفراد تهدف إلى تقليل درجة الأخطاء والصعوبات المرتبطة بالطرق التقليدية، ومن هذه الطرق الحديثة التي تم تطويرها ما يلي:

• طريقة مقياس السلوكية المتدرجة:

تعد هذه الطريقة من الطرق الحديثة المعتمدة على الأداء المتوقع وفقا للصفات السلوكية المحددة على المقياس العمودي المتدرج، حيث أن كل صفة من الصفات السلوكية المرتبطة بالأداء المطلوب تحدد لها درجات ويتم وضع وصف كامل لكل درجة من هذه الدرجات، وعلى ضوء الوصف المحدد يتم تحديد أداء الأفراد الفاعلين، ويعتمد هذا المقياس على العناصر الأساسية التي تتضمنها طريقتي التدرج البياني والمواقف الحرجة، ويتم توضيح وتفسير المستويات المختلفة للسلوك كأن يكون أداء متميز أو جيد أو ضعيف مما يساعد المقيم في ربط تقيّماته مع سلوك الفرد في العمل أثناء عملية التقييم.

وتعتمد هذه الطريقة على تصميم مقياس يتكون من سلسلة من المقاييس الفرعية العمودية من (5-10) مقاييس، حيث أن كل مقياس عمودي يتضمن صفة مهمة تعكس متطلبات إنجاز العمل بحيث يوفر للمقيم دليل لتحديد موقع الفرد فيه.

• طريقة التقييم السري:

وفقا لهذه الطريقة تتبع التنظيمات في تقييم أداء العاملين عن طريق تقييم كل فرد عامل في التنظيم من قبل الرئيس المباشر وزميله في العمل ومروؤسيه ثم تصميم نماذج تحتوي على أسئلة يطلب الإجابة عليها حول أداء العامل من قبل الرئيس المباشر ومروؤسيه وزملائه، ويطلب من كل طرف يقيم العامل أن يتم العملية بشكل سري بتعبئة النماذج دون إطلاع الغير، ومن بعد يتم اختيار العناصر والصفات موضع التقييم بمعرفة القائمين على التقييم، ثم يتم إحاطة كل مشترك في عملية التقييم بنتائجها.

• طريقة مقياس الملاحظات السلوكية:

طور هذا المقياس لتلافي العيوب والمآخذ المترتبة على طريقة المقياس السلوكية المتدرج، ولا يختلف هذا المقياس عن المقياس السابق إلا في أن المقيم بملاحظته لسلوك الأفراد العاملين يرتبهم على (5) خمسة أوزان لكل بعد سلوكي خاص بالعمل، ويميز هذه الطريقة عن سابقتها فقط أنها تركز على السلوك الملاحظ أي تتم ملاحظة السلوك بدلا من السلوك المتوقع.

• طريقة الإدارة بالأهداف:

انتشر حديثا استخدام هذه الطريقة وبشكل خاص إثر العيوب والانتقادات التي وجهت لأساليب التقييم السالفة الذكر، فهذه الفلسفة الإدارية اقترحها المفكر الأمريكي "بيتر دراكر" Drucker Peter سنة 1957م.

وتعرف الإدارة بالأهداف على أنها "عملية اجتماع الرئيس مع مروؤسيه في بداية المشروع أو فترة العمل والاتفاق على النتائج التي ينبغي إنجازها بحيث تنبثق الأهداف من معدلات الأداء"، فإذا ما تدنى مستوى الأداء الفعلي من المعدل المطلوب عندئذ يوضع هدف لإعادة الأداء إلى ما يجب أن يكون عليه.

خاتمة :

من خلال ما سبق نستنتج أن نجاح أي مؤسسة يتوقف على أداء موظفيها، ولكي يكون هذا الأداء فعالا يستوجب توفر بعض الشروط كتحديد أنشطة العمل والتصميم المناسب لها والمواصفات المطلوبة في الفرد الذي يقوم بتأدية العمل، حيث يعتبر هذا الأخير أحد مقومات الإنتاج الأساسية، ولذا يجب على الإدارة أن تسعى لتحقيق كفاءة أداء موظفيها والعمل على

إزالة ما يعيقهم ويؤثر على إنتاجيتهم، ويتم ذلك من خلال إشراكهم في اتخاذ القرارات، وتقديم الحوافز لهم سواء كانت مادية أو معنوية وهذا ما يتطلب وجود إدارة فعالة للأداء تتمثل في مجموعة من العمليات المتكاملة والمتراصلة من تخطيط، وتوجيه وتشخيص، وتقييم، وتحسين، إذا كان الأداء لم يصل إلى المستوى المطلوب.

قائمة المراجع:

1. يوسف حجيم الطائي، مؤيد عبد الحسين الفضل، وهاشم فوزي العبادي، إدارة الموارد البشرية، دار الوارق، الأردن، 2006.
2. زيد صالح حسن سميع، أثر الثقافة التنظيمية على الأداء الوظيفي، رسالة ماجستير، جامعة حلوان، اليمن، 2009.
3. براهيم ابراس، البحث الاجتماعي قضاياها مناهجه وإجراءاته، مراكش، منشورات كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، سلسلة الكتب العدد 10-1944.
4. موريس انجرس، منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية، ترجمة بوزيد صحراوي، كمال بوشرف، سعيد سبعون، دار القصة للنشر، الجزائر، ط: 2004.
5. Andresk, S, L, **Method and Substantive theory in Max Weber**, in British Journal of Sociology XV. 1.1964.
6. Claudia Van Zweck, Health human resources planning, by: The Canadian Association of Occupational therapists (CAOT), September, 2019.

المجتمع والمعنى: مدخل إلى السيميائيات الاجتماعية

Society and Meaning: An Introduction to Social Semiotics

د. ابراهيم مهديوي - د. محمد هموش (جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المغرب)

Dr. Brahim Mehdioui/Dr. Mhammed Hamouche Ibn Tofail University, Kenitra/ Kingdom of Morocco

ملخص:

تقدم هذه المقالة تعريفاً بالسيميائيات الاجتماعية من حيث المفهوم، والموضوع، والأبعاد التحليلية، والتكامل المعرفي، لذلك حددنا هذا الفرع من السيميائيات بصفته تأويلاً اجتماعياً لكيفيات استعمال الأفراد لمواردهم السيميائية من أجل التعبير عن معاني ضمنية في السياق، وناقشنا بعض أبعاده التطبيقية التي تشمل الأنساق الاجتماعية برمتها، ورصدنا أبرز المعارف والأصول النظرية المدمجة في التحليل السيميائي الاجتماعي، وقد خلصت هذه المقالة إلى تأكيد أن السيميائيات الاجتماعية شكل من أشكال النقد والتأويل الاجتماعي الذي يروم فحص الممارسات الاجتماعية التي يستعملها أفراد المجتمع بصفقتها موارد لبناء المعاني من أجل توصيل معلومات ما، والتلميح إلى أشياء كامنة في السياق الاجتماعي، مما يعني أنه لا تأويل لأي سيميائية اجتماعية بمعزل عن سيرورة فضائه الاجتماعي.

الكلمات المفتاحية: سيميائيات اجتماعية، سيميائية اجتماعية، مورد سيميائي، معنى اجتماعي، سياق.

Abstract:

This article provides a definition of social semiotics in terms of concept, subject, analytical dimensions, and cognitive integration. Therefore, we identified this branch of semiotics as a social interpretation of how individuals use their semiotic resources in order to express implicit meanings in the context, we discussed some of its applied dimensions that include entire social systems, and we monitored the most important knowledge and theoretical assets incorporated in the social semiotic analysis. This article concludes that social semiotics is a form of social criticism and interpretation that aims to examine the social practices used by members of society as resources to construct meanings in order to communicate information, and to hint at latent things in the social context. Which means that there is no interpretation of any social semiotic in isolation from the process of its social space.

Keywords: Social semiotics, social semiotic, semiotic resource, social meaning, context.

مقدمة :

تُعرّف السيميائيات (Semiotics) بأنها علم العلامات العام، وهي تُصنّف ضمن علوم المعنى التي تُعنى بدراسة السميوزيس في الفضاء السيميائي، وقد نجح البحث السيميائي المعاصر في توحيد مجموعة من الموضوعات المتباينة في خانة "الإيحاء" (Connotation) بصفتها أنساق علامات؛ بحجة أن دراسة أي نسق سيميائي تقود إلى بناء معاني إضافية ثانوية هي من صلب العرف والتوافق الاجتماعيّين، لقد سعت السيميائيات عبر تطوّرها التاريخي إلى صوغ نظرية عامة في تحليل خطاب العلامات، ومع ذلك فإنه تبلورت اتجاهات سيميائية متعاقبة هدفت إلى تحليل طرائق تمثيل الأفراد للمعاني في أنماط علامات مختلفة، وبالنظر إلى تباين طبائع هذه العلامات- اصطناعية، ولسانية، وفنية، وثقافية- واختلاف كفاءات انتظام أنساق علاماتها الفرعية (المسرح مقارنة مع التشكيل)، فقد واكب الدرس السيميائي هذه الملامح الفارقة من خلال بناء "سيميائيات خاصة" تهتم بدراسة كل نسق علامي على حدة حسب قواعده (نحو العلامة)، وملامحه المميّزة، فصّرنا نتحدث عن سيميائيات للصورة، وسيميائيات للسرد، وسيميائيات للمسرح، وسيميائيات للعمارة، وسيميائيات للفيلم، إلخ، وتختلف هذه الفروع السيميائية في أسسها النظرية، ومفاهيمها الواصفة، وروادها المؤسّسين، وموضوعاتها التحليلية (أنواع العلامات)، لكن يظل الهدف الأساس دراسة مسالك بناء المعنى في النسق السيميائي المعني.

وقد أسهمت دينامية الأبحاث والدراسات التي تشهدها السيميائيات في ظهور مدارس سيميائية جديدة قاسمها المشترك أنها "سيميائيات موسّعة"، وخصّيصتها البارزة أنها "متعددة التخصصات" (Multidisciplinarity) يمكن الاستناد إلى أدواتها الإجرائية من أجل تأويل أشكال مختلفة من العلامات، نذكر من ذلك "سيميائيات الثقافة" (Semiotics of Culture) بقيادة "أمبرتو إيكو" (Umberto Eco) في إيطاليا، وبزعامة مدرسة تارتو موسكو (Tartu-Moscow School) في روسيا، فهذه المدرسة السيميائية الأخيرة جعلت من الثقافة موضوعاً رئيساً للسيميائيات، لثبّتين- من جهة- أن الثقافة نسق سيميائي عام يتشكل من أنساق علامات فرعية وظيفية مختلفة، وتُظهِر- من جهة أخرى- أن أية ثقافة إنسانية سيرورة مركبة من النصوص الثقافية التي تتمثل وظيفتها في تصريف القيم، والتعبير عن الهوية، وبناء الذاكرة المشتركة، وأن مهمة السيميائيات ماثلة في دراسة هذا التعلق الوظيفي لهذه الأنساق والنصوص، ومعالجة التدرج والبناء الهرمي في اللغات الثقافية أيضاً، ثم إن مفاهيمها المحورية مثل: النصية، والنسق المنمذج الثانوي، والكون السيميائي، ونسق العلامات، يمكن استثمارها في تفسير اشتغال أنساق سيميائية مختلفة كالسرد، والصورة، والعمارة.

علاوة على ذلك، تطلعت "السيميائيات الاجتماعية" (Social Semiotics) إلى أن تكون أحد أشكال النقد الاجتماعي الذي يهدف إلى تأويل أنساق علامات المجتمع، فقد كان هدفها دراسة موارد بناء المعاني في الحياة اليومية؛ ذلك أنّ أيّ مجتمع بناءً سيميائي بالدرجة الأولى؛ فاللغة سيميائية اجتماعية، وكذلك الممارسات الاجتماعية كافة، إذ يستعمل أفراد كل مجتمع موارد سيميائية فريدة لإنجاز أغراضهم الاجتماعية وتحقيق أهدافهم التواصلية، وذلك من خلال التعبير عن المعاني بشكل غير مباشر في السياق الاجتماعي، لذلك لا يمكن للممارسة التأويلية أن تفصل هذه الوسائط الاجتماعية التواصلية عن سياقها الاجتماعي والثقافي والتاريخي. ويمكن توضيح هذا الطابع الشمولي للتحليل السيميائي الاجتماعي بمفاهيمه السيميائية الواصفة أيضاً؛ ذلك أن مفاهيم كالنسق السيميائي، والسيميائية الاجتماعية، والنسق الاجتماعي، والسياسي، يمكن أن يُستند إليها في تأويل ممارسات اجتماعية متباينة لفظية وغير لفظية.

من هذا المنطلق، تراهن هذه المقالة على التعريف بأحد الاتجاهات السيميائية المعاصرة؛ يتعلق الأمر بالسيميائيات ذات المنظور الاجتماعي، وذلك من خلال عرض مفهومها ومناقشته، وتحديد موضوعها، ورصد مفاهيمها المحورية، وتوضيح تداخلها المعرفي، لذلك فإن هذه الورقة العلمية ستجيب عن الأسئلة المركزية الموالية: ما الحاجة إلى السيميائيات بصورة عامة؟ وما

المقصود بالسميائيات الاجتماعية؟ وما مفاهيمها السميائية الواصفة؟ وما آفاقها التحليلية؟ وكيف نُوضِّح تفاعلها المعرفي؟

1. ما السميائيات؟

تعد السميائيات "دراسةً للعلامات، إنها تختص بالكيفيات التي نُمثِّلُ بها عالمنا لأنفسنا والآخرين، فهي مَسْعَى إنسانيّ، إذ يمكن للإنسان التواصل لفظياً أو غير لفظي، فيستعمل العلامات، أو الرموز، أو الصوت، أو الوسائل المصاحبة للغة لتوصيل الرسالة، إذ تهتم السميائيات بإنتاج المعنى وتأويله، ويتجلى مبدأها الأساس في أنّ المعنى ينتج عن تداول الأحداث والأفعال والموضوعات التي تشتغل بوصفها علامات في علاقتها بعلامات أُخرى، تُكوِّن العلاقة التي توجد بين علامة وأخرى نسقَ علاماتٍ"¹.

إن موضوع السميائيات هو "السميوزس" (Semiosis) الذي يعني دراسة أنساق العلامات مُدمجة داخل سيرورتها الاجتماعية وبنائها الثقافي وعمقها التاريخي والذاكري، فهو لا يُخْتَزَلُ في تحليل العلامة منفردة أو في ذاتها، لكن في علاقتها بعلامات أخريات، لقد أنتج الإنسان العلامات- بصفته حيواناً رمزياً بلغة "إرنست كاسيرر" (Ernst Cassirer)- ليجعلها وسائط إلزامية للتواصل مع الآخر، وتمثيل العالم وتكثيفه في أشكال رمزية، وقد اتخذت هذه العلامات هيئات، وأشكالاً، وصيغاً، ولغات متنوعة: لسانية، وأدبية، وفنية، وإعلامية، وغيرها، وهي مصنّعات ثقافية (Artefacts) "تدل"، و"تُرمز"، و"تُمثِّل"، و"تُوحى" برسائل غير مباشرة لا تنفصل عن الهوية، فمع تعدد وتنوع أنساق العلامات الاجتماعية، ستكون مهمة التحليل السميائي بناء معاني هذه العلامات استناداً إلى السنن الثقافية المتصلة بقوانين الفضاء السميائي وقواعده، بالنظر إلى اعتبارياتها إذا استعرنا مصطلحية "فيرديناند دي سوسير" (Ferdinand de Saussure) في السيميولوجيا (Semiology)؛ والسبب أن كل علامة "حامل دلالي"، و"ذاكرة" (Memory) تُكثِّفُ أبعاداً دلالية، وتضمّن جوانب تواصلية.

يُتيح لنا هذا المنظور السميائي أن نُعدَّ إنتاجاتنا الثقافية أنماطاً تعبيرية مختلفة توفر إمكانات غير محصورة لإحداث عمليات تواصلية إما بكيفية لسانية، أو فنية، أو هما معا بصيغة مركبة ومعقدة (المسرح أنموذجاً)، إذ لم "تعد اللغة الطبيعية وحدها تتيح لنا الوصول الكامل إلى معاني معظم الرسائل المعاصرة، التي يتم بناؤها الآن في عدة أوضاع: على الصفحات في وضع الكتابة والصورة؛ على الشاشات من خلال الأقراص المدمجة وعلى الويب؛ في الكلام، والموسيقى، والصورة- المتحركة أو الثابتة؛ في الإيماءة، واللون، ومسار الصوت، في مثل هذا النمط من النص، اللغة المتضمّنة، حاملٌ جزئي للمعنى فقط"²، ومن ثم فقد جسّدت السميائيات تفكيراً جديداً يعيد النظر في مفهوم اللغة من خلال رصد مجموعة من الوسائط التي لها إمكانات تعبيرية، والتعرف على أشكال مختلفة للتمثيل والتواصل³، ذلك أن اللغة في التصور السميائي مفهوم رحبٌ يشمل الأنساق اللسانية والفنية والثقافية، غير أن كل موضوع تواصلية يتميز بمكونات وخصائص فريدة تحكم تعبيرية مفرداته بشكل مختلف من كون ثقافي إلى آخر، لذلك تكمن الحاجة إلى السميائيات في تنمية الوعي بمختلف أشكال اللغات، وأنماط التمثيل الإنساني، وكذا تجديد معرفتنا بالعالم والإنسان، في هذا الإطار، يُوضِّح "أمبرتو إيكو" هذه الضرورة المعرفية والمنهجية للسميائيات حين

1- Mohammad Issa mehawesh, the socio-semiotic theory of language and translation: an overview, international journal of humanities and social science, vol. 4, N: 8, June, 2014, P 87, accessed 20/12/2022, online: www.ijhssnet.com.

2- Gunther Kress and Diane Mavers, Social semiotics and multimodal text, In: the research methods in the social sciences, edited: Brigdet SOMEKH and Cathy LEWIN, SAGE Publications, London, first published, 2005, P 172.

3- Ibid.

عدها "برنامجاً بحثياً يدرس جميع العمليات الثقافية بوصفها عمليات تواصلية"¹، مُبلوراً تعريفاً مُتطوراً مُفاده: "تُعنى السيميائيات بأي شيء يمكن أن يُتخذ بصفته علامة، إن العلامة أي شيء يمكن عده بديلاً عن شيء آخر، ليس ضرورياً أن يكون هذا الشيء الآخر موجوداً أو في الواقع في مكان ما في الوقت الحالي حيث توجد علامة عليه، ومن ثم فإن السيميائيات هي من حيث التخصص تدرس أي شيء يمكن استعماله في نظام الحياة"²، فما يميز سيميائيات إيكو أنها سيميائيات ثقافية تأويلية تُحلل الثقافة بصفحتها نظاماً تواصلياً عاماً، ومجموع مكوناتها اللفظية وغير اللفظية أنظمة تواصلية فرعية، وتظهر الحاجة إلى التأويل؛ لأن التواصل الثقافي ذي طبيعة نسقية يُؤاري المعنى خلف الأبعاد النفسية والبدئية والمباشرة التي تمارس التضليل والتورية.

لقد استطاعت السيميائيات بناء نظرية في تحليل الخطابات تراعي الملامح التركيبية لنسق العلامة، وكيفيات بناء معناه؛ ذلك أن تعقيد انتظام علامات الخطاب المسرحي، ليس التركيب ذاته التي تتخذها علامات الخطاب السردي، ولا الترتيب نفسه الذي تتخذها أنساق علامات اللباس، وهلم جرا.

إننا نناقش في هذه المقالة السيميائيات الاجتماعية بصفحتها فرعاً من السيميائيات يقترح أدوات تأويلية لتحليل الخطاب الاجتماعي، ويقترح إبدالا منهجياً لتأويله في السياق، إذ "توفر السيميائيات الاجتماعية أصنافاً تُطبَّق، على مستوى واحد، على جميع الأنماط بالتساوي، على الكلام كما الصورة، والإيماءة كما الموسيقى، والكتابة كما الموضوعات ثلاثية الأبعاد، وما إلى ذلك: أصناف مثل العلامة، أو النص، أو النوع/الجنس (Gendre)، أو الخطاب، أو الاستعارة والقياس"³.

2. ما السيميائيات الاجتماعية؟

بادئ ذي بدء، ظهرت السيميائيات مع مؤسسَيْن: أولهما اللساني "فيرديناند دي سوسير" الذي تكهن بعلم للسيمولوجيا "يدرس حياة العلامات داخل الحياة المجتمعية"⁴، وثانيهما الفيلسوف الأمريكي "شارل سندررس بورس" (Charles Sanders Peirce) الذي لم يكن بمقدوره دراسة أي شيء داخل التجربة الإنسانية إلا من وجهة نظر سيميائية تأويلية، مُستعيناً بعلم المنطق، والرياضيات، والفلسفة الظاهرية عند "إمانويل كانط" (Immanuel Kant)؛ ابتغاء تأويل الوجود الإنساني.

لقد تنبأ "فيرديناند دي سوسير" بهذا العلم الجديد من داخل حقل اللسانيات، وقد أسهم في ذلك تحديده لموقع اللسان بصفته أرقى الأنساق السيمولوجية؛ فهو مؤؤل ذاته، ومؤؤل جميع الأنساق السيمولوجية اللسانية وغير اللسانية، وهو- أيضاً- المصفاة التي يحضر بواسطتها العالم في الذهن، وتُخزَّن وقائعه على شكل ذكريات (ذاكرتنا لسانية بطبيعتها)، إذ يذكر- في هذا الصدد- ما نصه: "إن اللسان نسق من العلامات المعبرة عن أفكار، ومن ثم فهو شبيه بالكتابة، وأبجدية الصم والبكم، والطقوس الرمزية، وأشكال الآداب (التأديب)، والإشارات العسكرية، وما إلى ذلك، هذه فقط أهم هذه الأنساق"⁵، وتتأسس العلامة اللسانية على مبدأ إحالي ثنائي يتشكل من دال (Signifier) يُجسد الصورة الصوتية السمعية التي تمثّلها الكلمة في

1- Winfried Noth, Handbook of semiotics, Indiana university press, Bloomington and Indianapolis, 1990, P 326.

2- Umberto Eco, A theory of semiotics, Published by arrangement with Bompiani, Milan, Indiana University Press, 1976, P 7.

3- Gunther Kress and Diane Mavers, Social semiotics and multimodal text, Op. Cit, P 172.

4- Ferdinand De Saussure, cours de linguistique générale, publier par Charles Bailly et Albert Séchehayé avec la collaboration de Albert Riedlinger, édition Tullio de Mauro, Paris, Payot, 1972 (1916), P 33.

5- Ibid.

اللغة، ومدلول (Signified) هو الصورة التصويرية التي تجسد مفهوم الكلمة، وكلاهما من طبيعة نفسية، وتحكمهما علاقة اعتباطية مصدرها العرف والتوافق الاجتماعيان، ويُصطلح على العلاقة بينهما: الدلالة (Signification).

في الاتجاه السيميوطيقي الأمريكي، أكسب "شارل سندررس بورس" التحليل السيميائي أبعاداً تحليلية موسّعة نظرت إلى الوسط الإنساني بأنه فضاء لإنتاج العلامات وتداولها؛ فكل شيء داخله علامة حتى الإنسان مُنتجها، ومُروّجها، ومستهلكها، وقد قدّم هذا الفيلسوف والسيميائي توصيفاً ثلاثياً لبنية العلامة ينبي على مبدأ إحصائي ثلاثي هو: أول يحيل على ثانٍ عبر ثالث، أي ماثول (Representamen) يحيل على موضوع (Object) عبر مؤوّل (Interpretant)؛ فالماثول أداة للتمثيل، وهو الشكل الذي تتخذها العلامة، والموضوع هو ما تشير إليه العلامة من معارف، أو ما يقوم الماثول بتمثيله، أما المؤوّل فهو "عنصر التوسط الإلزامي الذي يسمح للماثول بالإحالة على موضوعه وفق شروط معينة"¹، غير أن الطابع المميز لسميائيات بورس يجلي في أن تأويل العلامة يقود إلى توليد دلالات غير محصورة اصطلاح علمياً اسم: السيميوزيس (Semiosis)، لكننا نلجأ إلى السياق لننتقي ما هو ملائم للفهم، وقد طوّر "شارل موريس" (Charles Morris) هذه النظرية عام (1938)، موزّعاً السيميائيات إلى ثلاثة أبعاد: تركيبية أو نحوي يدرس العلاقة بين العلامة وعلامات أخريات، ودلالي يكشف العلاقة بين العلامة وما تدل عليه، وتداولي يدرس العلاقة بين العلامة ومؤولها أو مستعملها، كما استثمر "أمبرتو إيكو" التصورات السيميائية السابقة عليه، فأعاد قراءتها وفحصها، وعدّ السيميائيات دراسة لأنساق الحياة الثقافية بصفتهما موضوعات تواصلية، مُستنداً إلى مقارنة تأويلية هي الوجه التطبيقي للسميائيات.

لقد كان هذا التمهيد ضرورياً للتعرف على جهود سيميائيين معاصرين بارزين تعاملوا مع العلامة داخل الفضاء الإنساني، قبل الانتقال إلى الحديث عن السيميائيات الاجتماعية، بالعودة إلى هذه الأخيرة، يوجد مصطلحان للتعبير عن الفرع السيميائي المعنيّ بالتحليل السيميائي للعلامات الاجتماعية وتأويلها، هما التاليان: "السوسيو سيميائيات" (Sociosemiotics)، و"السميائيات الاجتماعية"، "يميل المصطلح الأول إلى أن يكون مُهَيِّمًا في التقليد الأوروبي على الرُغم من أنه من المفارقات أن هذا الصدى يحاكي التقاليد الأنجلوفونية ذات الغالبية في السوسيو لسانيات (Sociolinguistics)، بينما يرتبط المصطلح الثاني بالمنظور الأنجلو- أسترالي لهايدياي في دراسته للتواصل والعلامة"².

إن مصطلح "السميائيات الاجتماعية" قُدّم لأول مرة من قِبَل "مايكل هاليداي" (Michael Halliday) عام (1978) عندما درس اللغة بصفها جزءاً من البناء الدلالي الذي يكوّن المجتمع، فقد نظر إليها بوصفها "سيميائية اجتماعية" (Social Semiotic): اللغة في سياق الثقافة بعديها نسقاً سيميائياً"³، وقد ساعده الإطار المعرفي الذي تبناه ضمن "اللسانيات الوظيفية النسقية" (Systemic Functional Linguistics) على رصد الجوانب النسقية التي تُضمّرها اللغة، مُبرِّزاً أنها "مورد سيميائي اجتماعي" (Social Semiotic Resource) يستعمله أفراد المجتمع لإنجاز أغراضهم من خلال التعبير بطريقة مُضمّرة عن المعاني في السياق، مؤكداً أنّ "اللغة لا يمكن فصلها عن المجتمع، فهو ينظر إليها بصفها سيميائية اجتماعية في أية لغة، والوسائل التي

¹ - سعيد بنگراد، السيميائيات والتأويل: مدخل لسميائيات ش. س. بورس، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 2005، ص 88.

² - Paul Cobley and Anti Randviir, Introduction: what is Sociosemiotics? Semiotica, 173- 1/ 4, 2009, P 1, accessed 25/12/2022, online: Doi10.1515/SEMI.2009.001.

³ - Michael Halliday, Language as social semiotic: the social interpretation of language and meaning, Edward Arnold Publishers, London, first published, 1978, P 191.

يتفاعل بها الناس، يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار في سياق اجتماعي، إن اللغة والمجتمع مفهومٌ مُوحَّد ويحتاج إلى أن يكون مُدقَّقًا بوصفه كُلاً¹.

يصوغ الأفراد رسائل مختلفة لأداء أغراض معينة، ويُعبِّرون عنها بواسطة اللغة، فَمِنَ المعلوم أنه يمكنهم استعمال الموارد اللغوية للكشف عن تجربتهم الداخلية والخارجية حول العالم، فاللغة طريقة ووسيلة مهمة لنقل ما يحدث حولهم وداخلهم²، وإذا كان "رومان جاكبسون" (Roman Jakobson) قد أسس سابقاً في مقالته الشهيرة "اللسانيات والشعرية"³ لِسِتِّ وظائف محورية للغة هي: الوظيفة التعبيرية، والتأثيرية، والشعرية، والمرجعية، والحشوية، واللسانية الواصفة، فإن "هاليداي" حدد ثلاث وظائف واصفة للغة هي التالية: الوظيفة الفكرية (Ideational)، والوظيفية البين شخصية (Interpersonal)، والوظيفة النصية (Textual)، وهي وظائف متداخلة في كل مستويات اللغة، تتحقق الوظائف الثلاث للغة بأنساقها الفرعية الخاصة بها وتتألف بدورها من هذه الأنساق الفرعية: الانتقال (Transitivity)، والحالة المزاجية (Mood)، والتقييم (Evaluation)، والبنية الموضوعية (Thematic Structure)، وبنية المعلومات (Information Structure)، ونسق التماسك (Cohesion System)، إذ تُتعلّق الوظيفة الواصفة الفكرية بالتفكير في محتوى الرسالة أو ما تقترحه من معلومات، وتُعنى الوظيفة الواصفة متعددة الشخوص بالتفاعل بين المتحدِّث والمرسل إليه الذي يعيِّران من خلاله عن مواقفهما وأحكامهما، أو يحاولان التأثير في مواقف الآخرين وتغيير أحكامهم، ويتم تفسير هذا المعنى البين شخصي في الجملة اللغوية على أنه تبادل مشترك يحدث بين طرفي الرسالة، بينما تختص الوظيفة الواصفة النصية بطريقة توليد النص، وكيفية الحصول على نص متماسك⁴.

لقد تنبه "هاليداي" إلى أن إنتاج النصوص إنتاج مُراقَّب من قِبَل سلطة النحو، ونسق الثقافة؛ ذلك أن الكاتب الذي يُبدع نصاً مُتَّسِقاً فهو يُنتج "تمثيلاً" (Representation)؛ لأن البنية اللسانية قادرة على التلميح إلى أشياء تتجاوز بنيته الشكلية السطحية: التوبيخ، والتحذير، والاحتجاج، وتعزيز الانتماء، إلخ، ومن ثم، سيصير النص تكثيفاً دلالياً يحتاج تأويله إلى الإلمام بالظروف الاجتماعية (المقام)، والسياق، وانفعالات الكاتب، إلخ. والمراد من ذلك أن الوظائف الواصفة للغة تُحدِّد النص بصفته تعبيراً عن رسالة من ناحية أولى، وخطاباً موجَّهًا من مُخاطَب إلى مُخاطَب يسعى إلى إحداث حوار ينتهي بإنجاز فعل التأثير من ناحية ثانية، وبنية متماسكة للوحدات اللغوية من ناحية ثالثة.

وقد لخص "طومبسون" (Thompson) هذه الأنواع الثلاثة من الوظائف الواصفة للمعنى على النحو التالي: "نستعمل اللغة للتحدث عن تجربتنا للعالم، بما في ذلك العوالم الموجودة في أذهاننا، لوصف الأحداث والوضعيات والكائنات المشاركة فيها؛ نستعمل اللغة أيضاً للتفاعل مع الآخرين، وإنشاء علاقات معهم والحفاظ عليها، والتأثير في سلوكهم، والتعبير عن وجهة نظرنا الخاصة حول الأشياء في العالم، وإثارتها أو تغييرها؛ أخيراً، عند استعمال اللغة، نُنظِّم رسائلنا بطرائق تشير إلى مدى ملاءمتها للرسائل الأخرى من حولها ومع السياق الأوسع الذي نتحدث أو نكتب فيه"⁵.

1- Mohammad Issa Mehawesh, the socio-semiotic theory of language and translation: an overview, Op. Cit, P 90.

2- Ming Liu, The Social Interpretation of Language and Meaning, Theory and Practice in Language Studies, Vol. 4, No. 6, June 2014, ACADEMY PUBLISHER Manufactured in Finland, P 1238, doi:10.4304/tpls.4.6.1238-1242.

3- قُدِّمت هذه المقالة في الأصل ضمن أعمال مؤتمر "الأسلوب" الذي انعقد بجامعة إنديانا ربيع (1958)، وقد تمت مراجعتها ونشرها في مؤلف "الأسلوب في اللغة"، تحرير: طوماس سيبوك، كامبريدج، ماساتشوس، مطبعة معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، 1960. ثم أعيد نشرها لاحقاً في الفصل السابع من القسم الأول "أسئلة النظرية الأدبية" ضمن كتاب "رومان جاكبسون" الموسوم بـ "اللغة في الأدب" عام (1987).

4- Ming Liu, The Social Interpretation of Language and Meaning, Op. Cit, P 1238.

5- Ibid, P 1239.

تفسيرًا لذلك، ناقش "هالداي" التغييرات التي تلحق بموضات الكلام، وعدّها تغييرات في الدلالات أيضًا؛ لأن أية موضّة كلامية جديدة أسلوبٌ دلالي متطور؛ والسبب أن كل طريقة في الكلام تعبير ضمني عن طريقة اجتماعية مخصوصة في إيصال المعاني وإبلاغها التي لا يمكن أن تُفكَّ شفراتها دون الرجوع إلى سياقها، يذكر "هالداي" في هذا الإطار- ما نصه: "من غير المُرجَّح أن يظل جزء من النسق الدلالي معزولا تماما عن الآخر؛ عندما يتم توليد معاني جديدة على نطاق واسع، يجب أن تتوقع بعض التغييرات في "موضات الحديث"، ليس واضحا كيف حدث ذلك؛ لكن من المؤكد أنه لا يكفي تأويل التجديد بأنه تغيير في الموضوع، تتضمن التغييرات التي يتم إحداثها بهذه الكيفية أنواعا من المشاركين من الوسائط، وعلاقات المشاركين، وجميع مكونات النسق الدلالي، يتم إحداث التغيير الدلالي من خلال وسيط البنية الاجتماعية، الأسلوب الدلالي وظيفته من العلاقات الاجتماعية وأنواع الحالات الناتجة عن البنية الاجتماعية، إذا تغيّرت فذلك ليس بسبب ما يتحدث عنه الناس الآن بل بسبب من يتحدثون، وفي أية ظروف، من خلال وسائل الإعلام وما إلى ذلك. سيتم فهم تحول الموضّة في الحديث بشكل أفضل بالرجوع إلى أنماط التفاعل الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية المتغيرة بدلا من البحث عن رابط مباشر بين اللغة والثقافة المادية"¹.

يمكننا الآن أن نستوعب أن جهود "هالداي" تُؤسّس لنظرية في التأويل الاجتماعي للغة والمعنى، وذلك من خلال التركيز على ما يمكن أن تؤديه اللغة من معاني غير تصريحية في سياق اجتماعي ما، فكلما تغيّر سياق المجتمع تغيّرت وسائط اللغة، وتبدلت طرائق التعبير عن المعنى في السياق، لذلك، فقد شكّل السياق في مشروع مضمون محوريا استثمر عمل "مالينوفسكي" (Malinowski) الذي تحدث عن "سياق الموقف" (Context of Situation) بما هو مجموع الأفعال التي تحدث عندما يتحدث المشاركون ويتفاعلون فيما بينهم، وإسهام "جون روبرت فيرث" (John Rupert Firth) الذي تعامل مع الموقف بصفته سياقًا لغويًا تتداخل فيه عوامل سياقية كالمشاركين في الموقف، وأفعالهم، وبعض خصائص الموقف، وأثار الفعل اللفظي (التوبيخ، أو التحذير، أو الإرشاد، أو التهديد، أو الالتماس، إلخ)²، لقد تطوّر السياق من "السياق في ذاته" - أي اللغة في ذاتها - إلى "السياق المركب" المنفتح على عوامل زمانية، ومكانية، وتاريخية، وثقافية، واجتماعية، وعلاقة المخاطب بالمخاطب، وحالاتهما النفسية والانفعالية والمزاجية، ونوعية وسائط التواصل، إلخ، ومعنى هذا أنه كلما تغيّر سياق الكون الثقافي تغيرت قواعد التواصل وقوانينه؛ بدليل أن كل فضاء اجتماعي يمتلك لغات لسانية وثقافية تتميز بخصائصها التركيبية والصوتية والأسلوبية والموضوعية التي يستعملها أعضاؤه لتحقيق أغراضهم وإنجازها من خلال التعبير عن المعاني في السياق، فهي طرائق لتمثيل المعنى في السياق الاجتماعي، وفي الآن ذاته هي وسائل للتفاعل، والاندماج، والتعايش، وتحقيق الوحدة، والانسجام، والتكامل، والتماسك على المستوى الاجتماعي، وتنظيم المجتمع، لذلك يُتطلّب أن يمتلك المرء سننا لغوية وثقافية مشتركة قبل بدء التواصل داخل أيّ كون سميائي، أي ضرورة امتلاكه خبرات وتجارب سابقة تُسهّل التحاور، ومن ثم تُحصّل الفهم، بهذه الكيفية، يمكن توضيح أهمية السياق في التأويل الاجتماعي للغة والمعنى.

وإذا كان الاتجاه اللساني النفسي والمعرفي يروم معالجة السيرورات الذهنية المصاحبة لعملية إنتاج (التحدث) وتلقي اللغة (الفهم)، والاتجاه البنيوي يسعى إلى دراسة العلاقات الشكلية بين الوحدات اللسانية بمعزل عن عواملها الدلالية ومُوجّهاتها التداولية فوق النصية، إذ يظل الغرض الأساس لهذا الاتجاه وصف اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها؛ لكونها نسقا مغلقا لا تستدعي دراسته أيّ معطى خارجي، فإن الاتجاه اللساني الوظيفي النسقي يرى أن الوحدات اللغوية وسائط تواصلية مرتبطة بعوامل دلالية وتداولية، وظروف مقامية مهمة وحاسمة في عملية التأويل، ذلك أن اللسان ليس النسق الوحيد المعتمد في التواصل؛ قد تتواصل بالوشم، والاحتفالات، واللباس، والموسيقى، وكل واحد من هذه الأنساق التعبيرية يمتلك لغة لها

1- Michael Halliday, Language as social semiotic: the social interpretation of language and meaning, Op. Cit, P 77.

2- Ming Liu, The Social Interpretation of Language and Meaning, Op. Cit, P 1239.

مفردات وخصائص؛ والشاهد على ذلك أن مفهوم اللغة صار مفهوماً سمياً يُعَدُّ كل "نسق يهدف في النهاية إلى إقامة تواصل بين شخصين أو أكثر لغة"¹. لذلك، إذا خاطبنا فرداً ما مُستعملاً وحدات لسانية متسقة ومنظمة يجب أن نعي أن خطابه عبارة عن "إمكان"، أو "انتقاء" - حضور بلغة "فيرديناند دي سوسير" - من بين احتمالات تواصلية عديدة يمكن أن يوظفها لتوصيل المعنى النسقي الذي يقصده، فهو قد اختار مفردات لغوية بعينها، واصطفى الطريقة اللغوية المجدية التي يراها فاعلة في قول ما يريد وإبلاغه ضمناً؛ إذ يمكنه أن يُضَمِّن اللغة "ما يمكن أن يفعله"، أو "ما يمكن أن يعنيه" بكيفية مشفرة، فلكي نفهم وظائف اللغة بشكل جيد، يجب علينا الخروج من اللغة، والنظر إلى اللغة نفسها على أنها تحقيق لشيء ما بعدها، الذي، بكلمات "هاليداي"، يشير إلى ما "يمكننا فعله"، أو السلوك المحتمل (Behavior Potential)، أو المعنى الممكن (Meanings Potential)، لذلك من الضروري اكتشاف وتأويل معنى اللغة في السياق الاجتماعي من منظور اجتماعي²، إن الفكرة الجوهرية التي يمكننا استخلاصها من النظرية النسقية عند "هاليداي" ماثلة في أن "اللغة يُنظر إليها على أنها سيمياء اجتماعي، مما يعني "كيف يستعمل الناس اللغة مع بعضهم البعض في إنجاز الحياة الاجتماعية اليومية"³.

يتعاطى التأويل السيميائي الاجتماعي عند "هاليداي" مع مختلف الأنشطة الاجتماعية والممارسات والنصوص واللغات الثقافية التي اكتسبناها بفعل التنشئة الاجتماعية والاحتكاك الثقافي؛ لأن الثقافة نسج علامي، و"مجموعة من النصوص التي تكون ذاكرة جمعية غير مورثة"⁴ بيولوجيا، إذا استعربنا أطروحات مدرسة تارتو موسكو السيميائية، وينبغي أن نكون على بينة من أن اللغة اللسانية لا تشكل سوى حلقة من سيرورة مركبة ومعقدة من النصوص واللغات التي تتوسط سلوكياتنا وتصرفاتنا وعلاقاتنا ضمن نسق سيميائي عام تمثله الثقافة. فقد تغيرت الخطاطة التواصلية داخل فضاءنا السيميائي، إذ تحولت عكسياً من: "لغة- نص- حوار، إلى: وضعية حوارية- حوار حقيقي- نص- لغة"⁵، ويُستفاد من ذلك أن الوضعية التواصلية أُسبِق من أية لغة كيفما كانت في الوجود، بل إنها تسبق- أيضاً- الحوار الفعلي والحقيقي نفسه: "تسبق الوضعية الحوارية كلاً من الحوار الحقيقي بل وحتى وجود اللغة، ومن ثم، فإن النص لا يخلق سياقه الخاص به فقط، ولكن لغته الخاصة كذلك"⁶، ومن ثم فحجم المعلومات التي تُوصَلُّ لغة ما في سياق معين، لا يمكن أن تنجح فيه لغة أخرى في سياق اجتماعي آخر، ويدل هذا على أن السياق (اللغوي، والثقافي) ينتقي الوسيط اللغوي المناسب لإبلاغ المعاني المقصودة، لقد بلور "يوري لوتمان" (Juri Lotman) الكون السيميائي بصفته "فضاء للمعنى، وبشكل أدق، يعد الكون السيميائي سلسلة متواصلة يصبح فيها للحياة معنى، (...) ذلك أنه لا يمكن أن تكون هنالك أية علامة أو لغة معزولة أو وظائف منفردة خارج إطار ما تحدد سيرورة الفضاء الثقافي"⁷، لذلك لا يمكن أن "تكتسب العلامة معناها إلا بوصفها جزءاً من فضاء أوسع لنسق العلامات، إذ تشتغل اللغة فقط في تعالق مع باقي اللغات وبذلك، فإن الفضاء السيميائي فضاءٌ حيث تنشأ العلامات، وتصبح اللغات فعّالة،

¹- Juri Lotman, the structure of the artistic text, translated from the Russian by: Ronald Vroon, NO. 7, ANN ARBOR, university of Michigan, 1977, P 7.

²- Ming Liu, The Social Interpretation of Language and Meaning, Op. Cit, P 1240.

³- Ibid, P 1241.

⁴- Juri Lotman, universe of the mind, a semiotic theory of culture, Introduction by: Umberto Eco, translated by: Ann Shukman, I.B. Tauris Publishers and CO. Ltd, London- New York, 1990, P: xi.

⁵- Aleksei Semenenko, the texture of culture: An introduction to Yuri LOTMAN's theory, series: semiotics and popular culture, PALGRAVE MACMILLAN, United States, New York, first published, 2012, P 113.

⁶- Ibid.

⁷- Franciscu Sedda, semiotics of culture (s): basic question and concepts, In: international handbook of semiotics, edited by Peter Percles Trifonas, Springer, New York- London, 2015, P 682.

وحيث أيضا يمكن بناء المعنى، وتبادله ونقله¹، فكل شيء داخل فضاءنا الاجتماعي علامة ولغة، وككل العلامات لا يمكن فهم وظائفها النسقية إلا بتأويلها في السياق الذي يوفره هذا الفضاء، وهو تصور سيميائي ثقافي يدعم أطروحة "هاليداي" المذكورة. وعلى هذا، فمن أجل تمثّل جيد للغة من منظور سوسيو سيميائي، "يجب فحصها ضمن إطار سيميائي اجتماعي، أو كما يضعها "هاليداي" في واقع اجتماعي (أو "الثقافة") هو في حد ذاته صرح للمعاني- بناء سيميائي، وفُق هذا المنظور، تعد اللغة أحد الأنساق السيميائية التي تشكل الثقافة؛ فهي نسق مُميّز من حيث إنه يشغل أيضا بصفته نسقا لترميز العديد من الأنساق الأخرى، هذا بمصطلحات مختصرة المقصود بصياغة "اللغة بوصفها سيميائية اجتماعية"، إنه يعني تأويل اللغة في سياق سوسيوثقافي، إذ تُؤوّل فيه الثقافة نفسها بمصطلحات سيميائية- بصفتها نسق معلومات²، وقد تطورت النظرية السيميائية الاجتماعية مع كل من "هودج" (Hodge) و"كريس" (Kress)³؛ وذلك من خلال تحديدهما لهذا الفرع السيميائي بكونه دراسة للسميوزيس، أي تحليلا لاستعمالات الأنساق السيميائية في الحياة الاجتماعية، وهو حقل يعنى بتحليل إنتاج وتلقي وتداول المعنى في مجموعة من الأشكال والنصوص والممارسات السيميائية التي تُتخذ بصفتها وسائط للتواصل، ومن ثم سيدرس أنواع الأنساق السيميائية الإنسانية، لكونها اجتماعية في ظروفها ومحتواها⁴.

يظهر أنّ السيميائيات الاجتماعية في أطروحات "هاليداي" و"هودج" و"كريس" حقل يتناول كيفية استعمال الرسائل وتبادلها في مجموعات اجتماعية معينة، فقد ظهرت السيميائيات الاجتماعية لتأويل الأبعاد الاجتماعية للمعنى وسلطة العمليات الإنسانية للدلالة والتأويل في تشكيل الأفراد والمجتمعات، إن البحث عن السيميائيات الاجتماعية وسيلة للإنسان من أجل فهم حياته، ويظن "كريس" (2010)⁵ أن المعنى يتولد في البيئات الاجتماعية ومن خلال التفاعل الاجتماعي، إذ تستعمل الأبنك الممارسات الاجتماعية لتوصيل المعاني إلى زبائنها ضمن البنية الاجتماعية للمصاريق، وتستعمل مجموعة متنوعة من المواد السيميائية لاشتغال العلامات في مواقف ملموسة، ويذكر "فان ليون" (2005)⁶ أن السيميائيات الاجتماعية مقاربة تركز على كيفية تطبيق الناس لاستعمال الموارد السيميائية في مجالاتهم الخاصة، وحيث يمارسون ممارسات اجتماعية بعينها⁷، ويُذكّرنا هذا التصور بالعمل الذي قام به "رولان بارت" (Roland Barthes) في كتابه "الأساطير" (Mythology) (1957)⁸، إذ يُعدُّ هذا العمل من الأمثلة المبكرة التي تُمثّل بدايات وخطوات أولى لبدء التفكير في ما سيُسمى لاحقا بالسيميائيات الاجتماعية، فقد درس صفحات الطبخ لمجلة (Elle)، والتصوير، والنشاط الانتخابي، والرياضة، والمدينة، إلخ. (...) ولعل المسألة المهمة بالنسبة للسيميائيين الاجتماعيين تتجسد في دراسة علاقة الممارسات الدالة على مجموع القوى المهيمنة أو الإيديولوجيا⁹.

1- Ibid.

2- Mohammad Issa Mehawesh, the socio-semiotic theory of language and translation: an overview, Op. Cit, P 90.

3- Robert Hodge and Gunther Kress, Social semiotics, Cambridge, Polity, 1988.

4- Mohammad Issa Mehawesh, the socio-semiotic theory of language and translation: an overview, Op. Cit, P 90.

5- Gunther Kress, Multimodality: A contemporary communication, Oxon: Routledge, 2010.

6- Theo Van Leeuwen, Introducing social semiotics. Oxon: Taylor and Francis, 2005.

7- Amanda Janssen, Social semiotic multimodal analysis of discourse in banking, In: text- based research and teaching, ed. P. Mickan and E. Lopez, Palgrave Macmillan, 2017, P 76, accessed 20/11/2020, Doi: 10.1057/978-1-137-59849-3_5.

8- Roland Barthes, mythologies, selected and translated from the French by ANNETTE LAVERS, the noonday press- New York, Seuil, Paris, 1957.

9- Bronwen Martin and Felizitas Ringham, key terms in semiotics, Continuum, New York, 2006, p 189.

بالإضافة إلى ذلك، نجد من بين التعريفات التي قُدِّمت للسميائيات الاجتماعية ما ذكره "لاغوبولوس" (Lagopoulos) و"غوتدينيير" (Gottdiener) (1986)¹ بأنها تحدد بكونها "تحليلاً مادياً لإيديولوجيا الحياة اليومية"²، إذ يُفترض في التحليل السميائي الاجتماعي أن يتعامل مع مختلف الأنشطة الاجتماعية اللفظية وغير اللفظية بصفها أنساقاً ثقافية واجتماعية وتاريخية وإيديولوجية موهلة في النشاط الاجتماعي اليومي برمته، ويُحلَّل أبعاد الهيمنة والسلطة، لهذا تشير السميائيات الاجتماعية إلى الطبيعة العامة للمعنى، لقد صيغت بكيفية تُشبه النقد الاجتماعي (Sociocriticism)، لذلك لا يمكن للسميائيات الاجتماعية إلا أن تشير إلى فحص اجتماعي لعلامات المجتمع³.

مما تقدم يتبين أن السميائيات الاجتماعية أو "سوسيولوجيا السميائيات" (Sociology of Semiotics) تدرس "الكيفية التي يُنظَّم بها مجتمع معين إنتاج، وتوزيع، وتلقي جميع أنواع العلامات، في سياق المماثلة، تركز "سوسيولوجيا الأدب" على الشبكات العامة لإنتاج، وتوزيع وتلقي جميع الأعمال الأدبية في الماضي، مع ذلك كان متوقَّعاً أن تكشف سوسيولوجيا الأدب الجيل الاجتماعي لأعمال أدبية معينة، وتكشف كيفية تأثر مواضيعها وأشكالها الخاصة بالعوامل الاجتماعية المحددة تاريخياً عادة ما يطلق على هذه العملية "الفحص النقدي" لمحتوى الكتب بدلاً من أن تسمى كما تُتداول حالياً "النقد الاجتماعي"، بالكيفية ذاتها سيشير مصطلح السوسيوسميائيات إلى هنا ليس فقط إلى "سوسيولوجيا عامة للعلامات" لكن أيضاً، وأساساً، إلى الفحص الاجتماعي للعوامل التي تحدد التغيرات في وظيفة، وطبيعة، ومعنى مجموعات معينة من العلامات، وستكون هذه المجموعة المعينة من العلامات، في هذه الحالة، نسقاً من العلامات التي تشتغل داخل أي نسق سميائي⁴.

إن تأويل العلامة في علاقتها بالسياق الاجتماعي مغزاه دراستها في علاقتها بعلامات اجتماعية أُخر داخل الكون الاجتماعي المعني، و"تبرهن الفرضية المركزية لهذا النقد على أن الأبعاد الاجتماعية للأنساق السميائية لا يمكن درائتها في حل، إذ تُظهر السميائيات السائدة (Mainstream Semiotics) البنات والشفرات، عوضاً عن التركيز على الوظائف والاستعمالات الاجتماعية للأنساق السميائية، والعلاقات المتداخلة المعقدة للنسق السميائي في الممارسات الاجتماعية وجميع العوامل التي توفر الحافز، وأصولها وتلقيها، وشكلها ومضمونها، إنها تُشَدِّد على النسق والمنتج، بدلاً من المتكلمين والكتاب أو غيرهما من المشاركين في النشاط السميائي بوصفهم متفاعلين ومشاركين بطرائق متنوعة في سياقات اجتماعية صحيحة"⁵.

بناء على ما سبق مناقشته، يمكننا أن نستخلص بعض الملامح المميّزة للسميائيات الاجتماعية نقدٍهما في النقاط التالية:

- "كما هو الشأن بالنسبة للسانيات، يتغير التركيز من "الجملة" إلى "النص" و"سياقه"، ومن "النحو" إلى "الخطاب"، لذلك يتحول التركيز في السميائيات الاجتماعية من "العلامة" إلى طريقة استعمال الناس "للموارد السميائية" لتوليد إنتاجات تواصلية وأحداث وتأويلها- وهو أيضاً شكل من أشكال الإنتاج السميائي- في سياق مواقف اجتماعية وممارسات محددة؛

1- Mark Gottdiener and Alexandros Lagopoulos, Introduction, In: the city and sign: An introduction to urban semiotics, M. Gottdiener and A. Lagopoulos (eds), 1986, PP 1- 22.

2- Anti Randviir and Paul Cobley, Sociosemiotics, In : the Routledge companion to semiotics, edited by: Paul COBLEY, Routledge, London and New York, first published, 2010, P 118.

3- Jean Alter, A sociosemiotic theory of theatre, University of Pennsylvania Press, Unites States of America, 1990, PP 12- 13.

4- Ibid, P 13.

5- Robert Hodge and Gunther Kress, Social semiotics, Cornell University Press, Ithaca, New York, first published, 1988, P 1.

-بدلاً من بناء حسابات (Accounts) منفصلة لمختلف الأنماط السميائية- سميائيات الصورة، وسميائيات الموسيقى، وما إلى ذلك- تقارن السميائيات الاجتماعية وتقابل الأنواع السميائية، إذ تكشف ما هو مشترك بينها وما هو مختلف أيضاً، كما تُبيّن كيفية دمجها في الإنتاجات الثقافية والأحداث المتعددة؛

-عوضاً عن وصف الأنماط السميائية كما لو أن لها خصائص جوهرية أو منهجيات مُتأصّلة أو قوانين، تركز السميائيات الاجتماعية على كيفية تنظيم الناس لاستعمال الموارد السميائية- مرة أخرى، في سياق ممارسات ومؤسسات اجتماعية محددة، بطرائق مختلفة ودرجات متفاوتة؛

-وأخيراً، تعد السميائيات الاجتماعية في حد ذاتها ممارسة أيضاً، مُوجّهة إلى الملاحظة والتحليل، لفتح أعيننا وحواسنا الأخرى من أجل إغناء وتعقيد إنتاج وتأويل سميائي، والتدخل الاجتماعي، لاكتشاف موارد سميائية جديدة وطرائق حديثة لاستعمال الموارد السميائية الموجودة"¹.

إن السميائيات الاجتماعية إضافة نظرية وتطبيقية إلى حقل السميائيات وتحليل الخطابات، فقد وفر هذا الفرع من السميائيات "افتراضات عامة حول المجتمع والمعنى"²؛ إذ رأت إلى المجتمع بأنه حقل لاشتغال السميوزيس الاجتماعي (Social Semiosis)، وفضاء سميائي حيث تتفاعل أنساق علامات اجتماعية وظيفية متباينة تسمى: موارد سميائية.

3. الموردُ السميائي مفهومٌ محوري في السميائيات الاجتماعية

وقّرت النظرية السميائية الاجتماعية إبدالاً منهجياً لتأويل الوظائف النسقية للممارسات الاجتماعية، وكشف دلالاتها الإضافية الثانوية، وإبراز الأبعاد الاجتماعية للمعنى الكامنة في استعمالها الضمنية في الحياة الاجتماعية، وتسمى هذه الموضوعات اللفظية وغير اللفظية التي يستهدفها التحليل السميائي الاجتماعي: موارد سميائية، لقد نشأ هذا المصطلح في عمل "هاليداي" (1978)، مؤكداً أن "القواعد اللغوية ليست رموزاً، وليست قواعد لإنتاج جمل صحيحة، وإنما موارد لبناء المعاني"³؛ فعندما "نركز انتباهنا على عمليات التفاعل الإنساني (...)"، نجد الأفراد يستعملون بشكل إبداعي مواردهم الخاصة بالمعنى، ويعيدون باستمرار هذه الموارد في العملية، من هنا في تأويل اللغة، فإن المفهوم التنظيمي الذي نحتاج إليه ليس بنية بل نسقاً، فقد كانت اللسانيات الحديثة مرتبطة بالبنية (بما إن البنية هي ما تصفه القواعد)، فمن خلال مفهوم النسق يمكننا تمثيل اللغة بصفته مورداً"⁴. لذلك، يجب أن نركز على الدلالات الاجتماعية لمواردنا السميائية التواصلية، مع رصد الظروف المقامية والعوامل السياقية المختلفة المؤثرة في بناء المعنى؛ وذلك من أجل كشف ما يقوله الناس، وما يقصدونه من استعمالهم للنصوص واللغات في وضعيات الحياة اليومية؛ لأن كل قول ليس إلا طريقة واحدة لتمثيل المعنى، من بين طرائق تمثيلية أخرى يوفرها اللباس والشعر وغيرهما، وبناء على ذلك، يُمكننا النسق من تأويل النسق اللساني، الذي يساعد بعد ذلك على تفسيره، والسياق الاجتماعي، ومن خلاله إلى النسق الاجتماعي⁵، والمراد من ذلك أن اعتماد مفهوم النسق إجرائياً نقلنا من اللغة البنية إلى اللغة النسق أو السيميائية، بمعنى من البناء الشكلي للغة ووصف قواعدها إلى التأويل الاجتماعي للغة وتحليل الأبعاد النسقية للمعاني التي هي من صلب التوافق والعرف الاجتماعيّين.

1- Theo Van Leeuwen, *Introducing social semiotics*, Routledge, London and New York, first published, 2005, P: xi.

2- Robert Hodge and Gunther Kress, *Social semiotics*, Op, Cit, P 2.

3- Theo Van Leeuwen, *Introducing social semiotics*, Op. Cit, P 3.

4- Michael Halliday, *Language as social semiotic: the social interpretation of language and meaning*, Op. Cit, P 192.

5- Michael Halliday, *Language as social semiotic: the social interpretation of language and meaning*, Op. Cit, P 192.

فَلِكَيْ يُؤَوَّلَ أَيُّ قولٍ بصفته نسقا اجتماعيا ينبغي للقارئ ربطه بقوانين فضائه الاجتماعي؛ ذلك أن كل قول تعبيرٌ مُشَمَّرٌ من جهة، وتجسيدٌ لطريقة مخصوصة في إبلاغ المعاني الضمنية في السياق من جهة أخرى؛ لأنه كلما تغير سياق الحياة الاجتماعية تغيرت وسائط التواصل وطرائقه وقواعده، وتبدلت كيفيات التمثيل أيضا، وهذا معناه أن المورد السيميائي يشير إلى أية لغة تمنح إمكانات سميائية واحتمالات دلالية مصدرها سياق الثقافة والمجتمع والتاريخ، ويمكن- أيضا- استعماله لأغراض تواصلية في الحياة اليومية، إن هذه "الإنتاجات الثقافية والأحداث التي نستعملها للتواصل، سواء تم إنتاجها فيزيولوجيا- مع أجهزتنا الصوتية؛ باستعمال العضلات التي نستعملها لإنشاء تعبيرات وإيماءات الوجه، إلخ- أو عن طريق التقنيات- باستعمال القلم والحبر والورق؛ مع أجهزة الحاسوب والبرمجيات، مع الأقمشة والمقص وآلات الخياطة، وما إلى ذلك، وتقليديا كانت تسمى "علامات"¹.

يشير مصطلح المورد السيميائي إلى مختلف أشكال النصوص والممارسات والخطابات التي تتغير من موقف تخاطبي إلى آخر، المستعملة من أجل التعبير النسقي عن رسائل في السياق، غير أن القضية المهمة في السيميائيات الاجتماعية تتجلى في التركيز على تفاعلات وارتباطات المعاني النصية لهذه الموارد السميائية واستعمالاتها في مجالات محددة من الممارسة الاجتماعية والحياة الثقافية، بمعنى أنها تؤوَّل أي نسق اجتماعي في علاقته بسياق فضائه الاجتماعي؛ ذلك أن السيميائيات الاجتماعية تظل نظريةً مختصة بدراسة وتحليل ممارسات بناء المعنى الاجتماعي، ومن ثم يعود مصطلح "السيميائية الاجتماعية" على أية نظرية سميائية أو لسانية تتخذ من العلامة بكافة تنوعاتها موضوعها الرئيس أو الوحيد، لهذا تطمح السيميائيات الاجتماعية إلى أن تكون ناقدةً، أي شكلا من أشكال التأمل الذاتي والنقد والتحليل الاجتماعيّين لديناميات هذه الممارسات وحركيتها وأدوارها الفاعلة في سيرورة الدلالة والتواصل، أي إثبات صلتها الوثيقة بعملية بناء المعنى الاجتماعي²، ذلك أن المجتمع بناء سيميائي يتشكل من أنساق علامات لسانية وغير لسانية لا تخرج عن دائرة عامة هي: "الهوية"، إذ إننا "نتناقل هويتنا الاجتماعية من خلال العمل الذي نقوم به، والطريقة التي نتحدث بها، والملابس التي نرتديها، وتسريحة الشعر، وعاداتنا للأكل، وبيئتنا وممتلكاتنا المحلية، وتديبرنا لوقت الفراغ، ووسائط سفرنا، وهكذا دواليك. تُستعمل اللغة بمثابة علامة رئيسة على الهوية الاجتماعية"³، فكل لغة- كيفما كانت طبيعة أنساقها- نسق عاكس (Reflective)، وخلفية (Background) تُضمّر الاجتماعي، والثقافي، والتاريخي، والقيميّ. ويعتمد السلوك الظاهر الذي يتم الكشف عنه في الملامح الثقافية على السلوك الضمني الذي تُوجّهه البنيات المعرفية مثل خطاطات الصور، والقيم، والمخططات السلوكية، إلخ، وهكذا فإن الهدف من فهم الثقافات وصّفها بأنها أنساقٌ للمعرفة، وأنساقٌ علامات متداخلة سميائية، وأنساقٌ عاكسة⁴.

إن مفهوم المورد السيميائي مفهومٌ رحب يستوعب مختلف أشكال التمثيل الثقافي؛ فجميعها نصوص ثقافية إذا استعرنا مصطلحية "يوري لوتمان" وباقي أعضاء مدرسة تارتو موسكو السميائية الثقافية؛ بحجة أن الوجود الثقافي برمته مُشكّل من مجموعة من النصوص الثقافية المتداخلة التي تبني الهوية، وتُصرّف القيم، وتحفظ الذاكرة الجمعية، ذلك أن النص الثقافي في سيميائيات الثقافة مفهومٌ مُوسّع- مثل المورد السيميائي- يشمل أي نسق "يمتلك معنى تاما ووظيفة متكاملة أيضا، (...) لهذا

1- Theo Van Leeuwen, Introducing social semiotics, Op. Cit, P 3.

2- Paul Thibault, Social semiotic as praxis: text, social meaning, and Nabokov's Ada, theory and history of literature, volume 74, University of Minnesota Press, Minneapolis, Oxford, 1991, pp 6- 7.

3- Daniel Chandler, Semiotics: the basics, second edition, Routledge, London and New York, 2007, P 153.

4- Anti Randviir and Paul Copley, Sociosemiotics, Op. Cit, P 123.

يُعدّ العنصر الرئيس (الوحدة الأساس) للثقافة¹، ثم إن تأويل هذه النصوص الثقافية مرتبط- أيضا- بسياقها داخل فضاءها الثقافي والاجتماعي؛ لأن الممارسة التأويلية لأي نص "خارج السياق أشبه بمستودع من المعلومات الثابتة التي تدل على ذاتها وغير قادرة على إنتاج معلومات جديدة، أما في إطار سياقه فيعني أنه آلية تشتغل وتعيد إنتاج نفسها باستمرار، وتُغيّر من ملامحها، وتُولّد معلومات جديدة"²، والمقصود بهذا أن أي نص من نصوص الثقافة "له القدرة على ربط علاقات معقدة مع السياق الثقافي والفاعلين الثقافيين، فهو مرتبط بالفاعلية الذهنية والذاكرة الثقافية"³؛ لكونه يُمثّل "القاعدة" و"القانون" الذي ينتقي الدلالات، ويحد من التأويل، فمثلا يمكن لأفراد معيّنين المشاركة في لعب لعبة معينة بمجرد فهمهم لقوانينها التنظيمية التي تضبطها، بالنظر إلى كونها قواعد نسقية تُمكنهم من التواصل فيما بينهم وفهم بعضهم البعض داخل نسق اللعبة المعنية، بالكيفية ذاتها تُصبح "السنن" أو "الشفرة" المفتاح الأساس للعمل السيميائي كافة؛ مفتاحًا لفهم كيف يبني الناس المعنى من خلال ممارساتهم، وأنشطتهم الاجتماعية والثقافية، ويتواصلون من خلالها⁴.

من هنا تكمن أهمية السيميائيات الاجتماعية في فحص أية ممارسة اجتماعية بصفتها سيميائية اجتماعية، وعلى هذا الأساس، يمكن أن تُشكّل مجموعة من الوقائع الاجتماعية آفاقا تطبيقية لتحليل السيميائي الاجتماعي هي بمثابة تحديات سيميائية اجتماعية، لذلك يمكن للمقاربة السوسيو سيميائية أن تناقش تحديات آنية ومستقبلية استدعتها التحولات الثقافية والتغيرات الاجتماعية المتسارعة، نذكر من ذلك على سبيل المثال لا العَدّ: التحدي التكنولوجي، والتحدي الغذائي، والتحدي الصحي، والتحدي الحقوقي، والتحدي الأمني، والتحدي العمراني، وتحديات أخرى متصلة بقضايا الإرهاب، والتنمية المستدامة، والإعلام، فما يميز هذه التحديات كافة؛ أنها "ذات طابع عالمي تخترق الحدود بين الدول وتؤثر في الهويات الوطنية"⁵، وتولّد تغييرات جذرية على مستوى العلاقات الاجتماعية، والقيم، ومختلف مناحي الحياة، إذ يمكن للسيميائيات- إلى جانب علوم إنسانية واجتماعية أخرى- أن تكون أداة معرفية لمقاومة البدهي والنفعي، وعدسة أو منظارا يرصد الرمزي والاستعاري.

4. السيميائيات الاجتماعية وتجسير المعارف وتكاملها

تَبَتَ مما سبق أن السيميائيات الاجتماعية فرع من السيميائيات يُعنى بدراسة موارد بناء المعنى، فليست غايتها تحليل بنية اللغات أو وصف قواعدها، وإنما تأويل ما يقصده الأفراد من استعمالهم لموارد لغوية متعددة، وما يُصِرّفونه ضمنيا في السياق. إن مبدأ التكامل المعرفي سمة بارزة في العلوم الإنسانية والاجتماعية بعامة والسيميائيات الاجتماعية تحديدا؛ فقد أحدثت هذه الأخيرة تجسيرا معرفيا مع: الأنثروبولوجيا التأويلية، وفلسفة الأشكال الرمزية، وسيميائيات الثقافة، وعلم الاجتماع، والتداوليات، وسيميولوجيا "فيرديناند دي سوسير" و"رولان بارت"، وسيميوطيقا "شارل سندرس بورس"، والسيميائيات التداولية لـ "شارل موريس"، واللسانيات الاجتماعية، إلخ، مما جعلها توصف بأنها "ليست نظرية "خالصة"، ولا حقلا قائما بذاته، بل ينشأ من تلقاء نفسه عندما يتم تطبيقه على حالات محددة ومشاكل خاصة، يتطلب دائما غَمْرَ (Immersing) نفسه

¹- Juri Lotman et al., Theses on the semiotic study of cultures (As applied to Slavic texts), Tartu semiotics library, Issue: 13/ 2013, CEEOL Copyright 2018, PP 57- 58, accessed 12/12/2017, Online: <https://www.ceeol.com/search/article-detail?id=256999>.

²- Anna Maria Lorusso, cultural semiotics: for a cultural perspective in semiotics, series: semiotics and popular culture, Palgrave Macmillan, New York, first published, 2015, PP 86- 87.

³- عبد الله بريعي، السيميائيات الثقافية: مفاهيمها وآليات اشتغالها، المدخل إلى نظرية يوري لوتمان السيميائية، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2018، ص 79.

⁴- Theo Van Leeuwen, Introducing social semiotics, Op. Cit, P 47.

⁵- عبد الله بريعي، السيميائيات الثقافية: مفاهيمها وآليات اشتغالها، المدخل إلى نظرية يوري لوتمان السيميائية، مرجع سابق، ص 36.

لا فقط بالمفاهيم والمناهج السيميائية لكن أيضا في بعض المجالات الأخرى، (...) ويعد هذا النوع من التخصصات المتداخلة (Interdisciplinarity) ملمحا رئيسا للغاية في السيميائيات الاجتماعية¹، ويمكن مناقشة هذا المعطى كما يلي:

تمكنت الأنثروبولوجيا الثقافية (Cultural Anthropology) في أوروبا من الانخراط في دراسة الثقافة، وتحديد مكوناتها، وتفسيرها، وفي إطار التعامل مع محتوى الثقافة ضمن التحليل السيميائي المعاصر، "يصعبُ تَجَنُّبُ التعليق على تطور الأنثروبولوجيا الثقافية خلال القرن العشرين، إذ يرتبط توسيع نطاق الأنثروبولوجيا الثقافية بالطريقة التي حددت السيميائيات الاجتماعية موضوعها (وكذلك، سيميائيات منتصف القرن العشرين، بعامه)، فقد كانت للأنثروبولوجيا الثقافية الأوربية جذورا في علم الاجتماع وسيميولوجيا سوسير التي كشفت عنها الأنثروبولوجيا البنيوية، علاوة على ذلك، فمبادئ السيميولوجيا، والبنيوية، والشكلانية واضحة في التطور الموازي لسيميائيات الثقافة، ذلك أن السيميولوجيا مهمة لكل من الأنثروبولوجيا البنيوية، ولسيميائيات الثقافة، لأنها قامت بتوجيه دراسات الثقافة نحو تحليل أنساق العلامة بوصفها أنساقا اجتماعية معرفية، وقد أفضى الإلحاح المتزايد تدريجيا على وصف الظواهر الثقافية بوصفها نتيجة لأنساق العلامات الاجتماعية المفردة (أو المشتركة) إلى ازدهار المدارس في التحليل الثقافي المرتبط بالاتجاهات المعرفية في الأنثروبولوجيا الثقافية، وهكذا كانت هنالك حركة ثابتة منذ أواخر القرن التاسع عشر لوصف الثقافات بصفها مجموعات من الإنتاجات الثقافية المنظمة وفقا لأنماط الثقافة نحو تأويل الثقافات بوصفها أنساقا إيديولوجية، وهذا معناه أن الثقافات لم تعد "تُصنَع" فقط على مستوى الوصف، بل من خلال تنظيم العلاقات بين الظواهر الثقافية في الخطاب العلمي"²، إذ لم يعد المعيار البدهي، أو النفعي، أو العملي مُحدِّدًا رئيسًا لتحليل الثقافة، لكن نوقشت بصفها أنساقا اجتماعية ثقافية تمثل الإدراك الاجتماعي والمعرفي والإيديولوجي والفكري للعيش في بيئات معينة³.

في السياق ذاته، تعامل الأنثروبولوجي "كليفورد جيرتز" (Clifford Geertz) مع الثقافة من وجهة نظر تأويلية، يذكر: "مفهوم الثقافة الذي أتبعناه، والذي أستعمله في مقالاتي بوصفه دليلا للبرهنة والتوضيح، مفهوم سيميائي بالأساس، أظن مع ماكس فيبر أن الإنسان حيوان معلق في شبكات من المعاني التي نسجها بنفسه، وأظن أن الثقافة هي هذه الشبكات، وتحليل هذه الشبكات لن يكون علما تجريبيا يبحث عن قانون، وإنما تحليل تأويلي يبحث عن دلالة ما"⁴، ذلك أن أهم ما يُفَرِّد الإنسان-حسبه- قدرته على إنتاج العلامات التوسطية، وتسميتها، وتحديد وظائفها، وتداولها اجتماعيا بعد التوافق حولها، وتغييرها أيضا، بالنظر إلى ملكته اللغوية الباطنية، إذ لا يمكن للتحليل الأنثروبولوجي أن يصف القواعد والقوانين المنظمة للعناصر المشكلة للبنية الثقافية، لكن يتعين عليه أن يؤوّل الثقافة بصفها نسيجا من المعاني، لذلك يمكن أن نعد "أنثروبولوجيا جيرتز" انتقالا معرفيا ومنهجيا من الوصف البنيوي للثقافة إلى تأويل الثقافات.

لم تَغِبْ الفلسفة- بدورها- عن السيميائيات الاجتماعية؛ والشاهد على ذلك التحليل الذي قُدِّم للثقافة بصفها "أشكالا رمزية" (Symbolic Forms)، على حد تعبير "إرنست كاسيرر"، إن فلسفة كاسيرر تتأسس على فكرة رئيسة مؤداها أن الإنسان حيوان رمزي، وأن مجموع مُصنَّعاته الثقافية أشكال رمزية توسطية يستعملها في وضعياته التواصلية اليومية بصفها علامات، وتحسن الإشارة إلى أن هذه الفلسفة الرمزية لم تكن هدفا في ذاتها، وإنما وسيلة تأويلية تُعين على فهم مختلف الوقائع

1- Theo Van Leeuwen, Introducing social semiotics, Op. Cit, P 1.

2- Paul Cobley and Anti Randviir, Introduction: what is Sociosemiotics?, Op. Cit, PP 8-9.

3- Ibid, P 9.

4- Clifford Geertz, The interpretation of cultures, Basic books, Inc, New York, 1973, P 5.

الإنسانية؛ بحجة أن تحصيل فهم أفضل للمجتمع يتطلب تأويل أنساق علاماته؛ لكونها "تقدّم مفتاحاً لأشكال التصور الإنساني"¹، وفي الآن ذاته تستدعي الممارسة التأويلية التي تستهدف هذه الأنساق ربطها بسياقها الاجتماعي والثقافي والتاريخي. استلهمت السيميائيات الاجتماعية- أيضاً- من المنجزات السيميائية لمدرسة تارتو موسكو في السيميائيات الثقافية أفقاً لتأويل المجتمع بعدّه فضاء سيميائيا لحركية أنساق العلامات، وقد أسهم نشر البيان الجماعي "أطروحات حول الدراسة السيميائية للثقافات" عام (1973) في موسكو- بقيادة "يوري لوتمان"، و"فياتشسلاف إيفانوف" (Vyacheslav Ivanov)، و"فلاديمير طوبوروف" (Vladimir Toporov)، و"ألكسندر بياتيغورسكي" (Alexander Piatigorsky)، و"بوريس أوسبنسكي" (Boris Uspenskij)- في ظهور شيتين جديدين: "ظهور مدرسة جديدة في التحليل السيميائي في الساحة الدولية تحمل اسم: "مدرسة تارتو موسكو"، وهذا هو الجديد الأول، أما الجديد الثاني فتمثل في انبثاق اختصاص جديد يُدعى سيميائيات الثقافة"²، وقد نُوقِشت الثقافة من قبل هذا الاتجاه السيميائي الثقافي بصفتها نسقا سيميائيا عاما يتشكل من أنساق سيميائية فرعية وظيفية مختلفة مهمتها تصريف القيم، والتعبير عن الهوية، وبناء الذاكرة، وتنظيم المجتمع. لذلك حُدِدت سيميائيات الثقافة بكونها دراسة لأنساق دلالية وموضوعات تواصلية. وتتجلى وظيفتها في "دراسة التعالق الوظيفي لأنساق العلامات المختلفة"³.

بالإضافة إلى ذلك، استمدت السيميائيات الاجتماعية من علم الاجتماع (Sociology) ما يُعِينها على بناء فكر نقدي يفحص دلالات ظواهر اجتماعية مختلفة (الجريمة، والانحراف، إلخ)، إذ "يمكن للسيميائيات الاجتماعية أن تكون بمثابة مجموعة أدوات منهجية تمكن الباحثين من تحديد حدود أية دراسة للظواهر السوسيوثقافية وأنساق العلامات"⁴.

كما قد تطلب فحص موارد بناء المعنى في الاتجاه السيميائي الاجتماعي الانفتاح على التداولية (Pragmatics)؛ فهذه الأخيرة "فرع من فروع اللسانيات الذي يُعنى بالوظائف التواصلية للغة، خاصة فحص اللغة والتفاعل في السياق، يمكن التفكير في التداولية بأنها تندرج أو تتداخل مع حقول ونظريات أخرى مثل نظرية الفعل اللغوي، ونظرية السياسية، وتحليل المحادثة، واللسانيات الاجتماعية التفاعلية، إن التداولية معنية بالمعنى- كيف يفهم الأفراد اللغة، (...) تركز التداولية أكثر على كيفية إنجاز المعنى في سياقات معينة، من خلال مراعاة أشياء مثل كيف وأين وعندما يقال شيء ما، من يقوله، وما العلاقة بين المتحدث والمستمع، وكيف نفهم الاستعمالات الغامضة للغة، (...) ذلك أن معنى الكلام هو أكثر مما يقال بالفعل"⁵، ولا يبدو أن للتداولية هدفا حقيقيا للدراسة، لذلك فمن المنطقي التعامل معها على أنها "منظور" (Perspective) يركز على اختيار، وتنوع، وتكييف، مجموعة من الظواهر المتحالفة معرفيا مع التداولية التي يجب فهمها بصفتها منظورا متعدد التخصصات

¹ - إرنست كاسيرر، اللغة والأسطورة، ترجمة: سعيد الغانمي، هيئة أبي ظبي للثقافة والتراث، كلمة، الطبعة الأولى، 2009، ص 10.

² - Peeter Torop and Silvi Salupere, On the beginnings of the semiotics of culture in the light of the theses of the Tartu - Moscow school, Tartu semiotics library, Issue: 13/ 2013, CEEOL Copyright 2018, P 15, accessed 11/10/2019, Online: <https://www.ceeol.com/search/article-detail?id=257001>.

³ - Peeter Torop, cultural semiotics, In: the Routledge Handbook of language and culture, edited by: Farzad SHARIFIAN, Routledge, London and New York, first published, 2015, P 170.

⁴ - Paul Cobley and Anti Randviir, Introduction: what is Sociosemiotics?, Op. Cit, PP 14- 15.

⁵ - Paul Baker and Sibonile Ellece, Key Terms in Discourse Analysis, Continuum International Publishing Group, London- New York, 2011, P 100.

يشمل دراسة المعرفة، والمجتمع، والثقافة¹، ويتبدى تكامل التداوليات مع السيميائيات الاجتماعية في فكرة أن إنجاز اللغة- بمفهومها الموسّع- يكون من أجل تحقيق أغراض تتجاوز ما يقال حرفياً: الالتماس، أو الإرشاد، أو الاحتجاج، إلخ.

خاتمة :

لقد كان الغرض من هذه المقالة تسليط الضوء على أحد اتجاهات السيميائيات المعاصرة؛ إذ يتعلق الأمر بتقديم مدخل حول السيميائيات الاجتماعية تُناقش فيه مفومها، وموضوعها، وامتداداتها التطبيقية، وتداخلها المعرفي. وقد أكدت هذه الورقة أن هذا الفرع من السيميائيات يختص بدراسة أنساق العلامات الاجتماعية في سياقها السوسيوثقافي والتاريخي، وهو مقارنة منهجية تمكننا من تحليل الموارد السيميائية التي يستعملها أعضاء المجتمع من أجل إنتاج المعاني وإبلاغها ضمناً.

انطلاقاً مما سبق، يمكن استخلاص النتائج الآتية :

- السيميائيات علم للمعنى يهتم بدراسة السيميوزيس.
- السيميائيات الاجتماعية فرع من السيميائيات يعنى بدراسة السيميوزيس الاجتماعي، أي تحليلُ يَتَّبَعُ الحركية المؤدية بأنساق العلامات الاجتماعية إلى أن تُعبّر عن معانٍ مضمرة في سياق الفضاء الاجتماعي المعني.
- السيميائيات الاجتماعية مقارنة منهجية لتأويل كيفيات استعمال أفراد المجتمع لمواردهم السيميائية من أجل بناء المعاني وتوصيل الرسائل في بنية اجتماعية مخصصة.
- المورد السيميائي تصوّرٌ رُحِبَ يشمل أيّ سيمياء اجتماعي لفظي أو غير لفظي.
- السيميائيات الاجتماعية تخصص إدماجي يستثمر تراثاً علمياً وأصولاً نظرية متكاملة من أجل كشف الرسالة المتوارية خلف النسق المعلن.

قائمة المصادر والمراجع :

المراجع العربية :

- سعيد بنكراد، السيميائيات والتأويل: مدخل لسيميائيات ش. س. بورس، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 2005.
- عبد الله بري، السيميائيات الثقافية: مفاهيمها وآليات اشتغالها، المدخل إلى نظرية يوري لوتمان السيميائية، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2018.

المراجع المترجمة :

- إرنست كاسيرر، اللغة والأسطورة، ترجمة: سعيد الغانمي، هيئة أبي ظبي للثقافة والتراث، كلمة، الطبعة الأولى، 2009.

المصادر والمراجع الأجنبية :

- Aleksei Semenenko, **The Texture of Culture: An Introduction to Yuri LOTMAN's theory**, series: Semiotics and Popular Culture, PALGRAVE MACMILLAN, United States, New York, First Published, 2012.
- Amanda Janssen, Social Semiotic Multimodal Analysis of Discourse in Banking, In: **Text- Based Research and Teaching**, ed. P. Mickan and E. Lopez, Palgrave Macmillan, 2017, accessed 20/11/2020, Doi: 10.1057/978-1-137-59849-3_5.

¹- Paul Cobley and Anti Randviir, Introduction: what is Sociosemiotics?, Op. Cit, P 19.

- Anna Maria Lorusso, **Cultural Semiotics: for a Cultural Perspective in Semiotics**, series: Semiotics and Popular Culture, Palgrave Macmillan, New York, first published, 2015.
- Anti Randviir and Paul Cobley, Sociosemiotics, In : **The Routledge companion to semiotics**, Edited by: Paul COBLEY, Routledge, London and New York, First Published, 2010.
- Bronwen Martin and Felizitas Ringham, **key Terms in Semiotics**, Continuum, New York, 2006.
- Clifford Geertz, **The Interpretation of Cultures**, Basic Books, Inc, New York, 1973.
- Daniel Chandler, **Semiotics: The Basics**, Second Edition, Routledge, London and New York, 2007.
- Ferdinand De Saussure, **Cours de Linguistique Générale**, Publier par Charles Bailly et Albert Séchehaye avec la Collaboration de Albert Riedlinger, Edition Tullio de Mauro, Paris, Payot, 1972 (1916).
- Franciscu Sedda, Semiotics of Culture (s): Basic Question and Concepts, In: **International Handbook of Semiotics**, Edited by Peter Percles Trifonas, Springer, New York- London, 2015.
- Gunther Kress and Diane Mavers, Social Semiotics and Multimodal Text, In: **The Research Methods in The Social Sciences**, Edited: Brigdet SOMEKH and Cathy LEWIN, SAGE Publications, London, First Published, 2005.
- Jean Alter, **A Sociosemiotic Theory of Theatre**, University of Pennsylvania Press, Unites States of America, 1990.
- Juri Lotman et al., Theses on The Semiotic Study of Cultures (As Applied to Slavic Texts), **Tartu Semiotics Library**, Issue: 13/ 2013, CEEOL Copyright 2018, accessed 12/12/2017, Online: <https://www.ceeol.com/search/article-detail?id=256999>.
- Juri Lotman, **The Structure of The Artistic Text**, Translated From The Russian by: Ronald Vroon, NO. 7, ANN ARBOR, University of Michigan, 1977.
- Juri Lotman, **Universe of The Mind, A Semiotic Theory of Culture**, Introduction by: Umberto Eco, Translated by: Ann Shukman, I.B. Taouris Publishers and CO. Ltd, London- New York, 1990.
- Mark Gottdiener and Alexandros Lagopoulos, Introduction, In: **The City and Sign: An Introduction to Urban Semiotics**, M. Gottdiener and A. Lagopoulos (eds), 1986.
- Michael Halliday, **Language as Social Semiotic: The Social Interpretation of Language and Meaning**, Edward Arnold Publishers, London, First Published, 1978.
- Ming Liu, The Social Interpretation of Language and Meaning, **Theory and Practice in Language Studies**, Vol. 4, No. 6, June 2014, ACADEMY PUBLISHER Manufactured in Finland. doi:10.4304/tpls.4.6.1238-1242.
- Mohammad Issa mehawesh, The Socio-semiotic Theory of Language and Translation: An Overview, **International Journal of Humanities and Social Science**, vol. 4, N: 8, June, 2014, accessed 20/12/2022, Online: www.ijhssnet.com.
- Paul Baker and Sibonile Ellece, **Key Terms in Discourse Analysis**, Continuum International Publishing Group, London- New York, 2011.

- Paul Copley and Anti Randviir, Introduction: What is Sociosemiotics?, **Semiotica**, 173- 1/ 4, 2009, accessed 25/12/2022, Online: Doi10.1515/SEMI.2009.001, pp 1- 39.
- Paul Thibault, **Social Semiotic as Praxis: Text, Social Meaning, and Nabokov's Ada**, Theory and History of Literature, Volume 74, University of Minnesota Press, Minneapolis, Oxford, 1991.
- Peeter Torop and Silvi Salupere, On The Beginnings of The Semiotics of Culture in The Light of The Theses of The Tartu- Moscow school, **Tartu semiotics library**, Issue: 13/ 2013, CEEOL Copyright 2018, accessed 11/10/2019, Online: <https://www.ceeol.com/search/article-detail?id=257001>.
- Peeter Torop, Cultural Semiotics, In: **The Routledge Handbook of Language and Culture**, Edited by: Farzad SHARIFIAN, Routledge, London and New York, First Published, 2015.
- Robert Hodge and Gunther Kress, **Social Semiotics**, Cornell University Press, Ithaca, New York, First Published, 1988.
- Theo Van Leeuwen, **Introducing Social Semiotics**, Routledge, London and New York, First Published, 2005.
- Umberto Eco, **A Theory of Semiotics**, Published by Arrangement with Bompiani, Milan, Indiana University Press, 1976.
- Winfried Noth, **Handbook of Semiotics**, Indiana University Press, Bloomington and Indianapolis, 1990.

النزعة التاريخية: نشوء الشمولية في الفكر الاجتماعي والنظم السياسيّة

L'Historicisme : la genèse du totalitarisme social et politique

لوصيف رحومة: أستاذ جامعي في مادّة الفلسفة/جامعة المنستير، تونس

Loussaief Rhouma/ docteur chercheur en philosophie/ Université de Monastir/ Tunisie

Résumé:

La conception de la Cité, ou la République idéale de Platon repose sur la théorie platonicienne des Formes. Cette théorie des Formes est fondée sur la loi de Devenir qui détermine l'existence des êtres et des objets.

La loi du Devenir est liée au constat de la corruption et la décadence des êtres à travers leur évolution organique et historique ; l'histoire des êtres est, alors, un processus évolutif de dégénérescence et de décadence, de la perfection à l'imperfection.

La pensée platonicienne, qui repose sur un principe historiciste, a influé les courants philosophiques et les sciences sociales de l'âge moderne ; Ce principe de l'historicisme consiste dans l'allégation que le devenir est une fatalité irrévocable qui détermine l'histoire de l'humanité.

Néanmoins, d'après cette doctrine historiciste, l'histoire des sociétés et civilisations humaines est régie par un déterminisme, économique et spirituel, et par une téléologie historique ou divine.

L'historicisme a contribué à la genèse des théories sociales et des doctrines politiques dont, malgré l'antinomie des thèses défendues, les adeptes de ces doctrines soutiennent que leurs allégations sont déduites de l'étude objective de l'homme et de l'histoire. Et chaque théorie justifie ses allégations par des argumentations déterministes et historicistes.

La tendance historiciste a contribué à la formation des régimes politiques totalitaristes et despotiques et à la persistance de la vision subjective réductionniste et sélective du monde.

Mots clés : Historicisme, Déterminisme, Téléologie, Devenir, Transformation, Causalité Dégénérescence, Essences, Totalitarisme, Socialisme, Communisme.

ملخص:

لقد ظهرت النزعة التاريخية، كما يبين ذلك كارل بوبر في كتابه "المجتمع المفتوح وأعداؤه" بداية، مع أفلاطون، لتتواصل في العصر الحديث ليتشكل على أساسها الفكر الاجتماعي عموماً والفكر السياسي، من أوغست كونت إلى هيغل ومن ثمّة ماركس.

يقرّ معتنقي هذه النزعة بحقيقة التغيّر و الصيرورة اللذان يحكمان العالم، ولكن يربطون هذه الصيرورة بحتمية إلهية وبغائية تاريخية. لقد أسست هذه النزعة لمذاهب سياسية ونظريات اجتماعية مختلفة. ولكن وعلى اختلاف هذه المذاهب، فهي تجتمع على الادعاء بأنّها ضرورية وملزمة بحجّة أنّها تقوم على استقرار التاريخ وعلى أنّها تمثل الحتمية التاريخية وتعبّر عن روح العصر. لقد ساهمت النزعة التاريخية في نشوء نظم سياسية شمولية وإستبدادية على امتداد القرن العشرين، وفي ترسيخ رؤية اختزالية و اقصائية للعالم وللتاريخ.

الكلمات المفتاحية : التاريخية، الحتمية التاريخية، الغائية، التغيّر، الصيرورة، السيرورة، التفسّخ، العقل المطلق، الجواهر، الشمولية، السببية والعلية، الشيوعية.

مقدمة :

في خضمّ محاولة فهم الظواهر الاجتماعية و إيجاد الحلول العملية للمشاكل التي تطرأ على المجتمع في مختلف المجالات، يسعى الفكر الاجتماعي والسياسي والفكر الفلسفي عموماً إلى استكشاف القوانين والمبادئ التي تتغيّر وفقها المجتمعات الإنسانية، وكذلك معرفة الغاية والهدف الذي يتجه نحوه المسار التاريخي.

لقد ساد الاعتقاد، منذ أفلاطون، أن التطور التاريخي للمجتمعات والشعوب الإنسانية يخضع لقوانين ثابتة ويمرّ عبر مراحل محدّدة من أن أجل الوصول إلى غاية أو هدف نهائي.

تتمثّل التّاريخانية في الاعتقاد المبدئي بأنّ التاريخ الإنساني يتطور ضمن مسار تاريخي محدّد، وأنّ المسار التاريخي يتحرّك في اتجاه حالة أو وضعيّة تفرضها غاية تاريخية، وهو ما يؤدّي حسب هذه النزعة التاريخانية إلى الاعتقاد بتطور المجتمعات والحضارات الإنسانية تحكّمه حتمية تاريخية صارمة، وبأنّ كل مرحلة تاريخية هي ناتجة عن مرحلة سابقة وهي ضرورية لمرحلة قادمة في اتجاه الغاية النهائية التي يتجه نحوها التاريخ.

لقد أدعى أفلاطون بأنّ التاريخ يحكّمه التغيّر، ولكن هذا التغيّر يسير من الكمال إلى النقصان، ومن الفضيلة إلى الرذيلة. وبالتالي وجب إيقاف هذا التغيّر من أجل تحقيق المدينة الفاضلة و دوام الخير والعدل.

أما هيغل، فقد أدعى بأنّ تاريخ الحضارات والشعوب هو تجسيد للصيرورة التاريخية التي تنتهي بتحقيق الكمال الحقيقية والجمال وتجنّس العقل المطلق.

تظهر مخاطر وانعكاسات المثالية الهيجلية عندما تمتزج بالقومية الجرمانية والنزعة الشمولية في الفكر السياسي، على اعتبار أن الفلسفة الهيجلية تنتهي إلى اعتبار أنّ الدولة في عصره تمثّل نهاية التاريخ وبأنّها تمثّل التجسّد الفعلي للحقيقة والخير وللحرية والجمال.

تأتي بعد ذلك تاريخانية معاكسة متمثلة في الفلسفة الماركسيّة التي تدّعي بدورها أنّ التاريخ الإنساني تحكمه حتميّة تاريخيّة تمرّ بمقتضاها المجتمعات الإنسانية من مرحلة المشاعية إلى المرحلة الإقطاعية وصولاً إلى المرحلة الشيوعية.

لقد عزّز التقدم العلمي في العصر الحديث هذه النزعة التاريخيّة التي أصبح معتقها يستمدون شرعيّتها من القوانين والمبادئ العلميّة التي تأسست عليها العلوم الطبيعيّة. لكن، في الوقت الذي كانت هذه النزعة التاريخانية تؤسس فيه لنظم سياسيّة شموليّة واستبدادية، وترسخ فيه لنظرة اختزالية وضيقة للعالم وللإنسان، كانت العلوم الطبيعيّة الفيزيائية تتطوّر وتتقدّم بفضل مراجعة وتصحيح مبادئها وقوانينها.

أفلاطون يناهض التغيّر

تعتبر النزعة التاريخانية لدى أفلاطون، كما يبيّن ذلك بوبر، نتيجة لنظرية المثل أو الصور التي أسسها، ومن ثمة من منطلقات رؤيته للمدينة الفاضلة أو الكاملة. لقد ورث أفلاطون عن سابقه من هيراقليطس إلى بارميندس وكذلك معاصريه من السفسطائيين مشاكل معرفيّة وأطروحات تجعل كل معرفة علمية وصحيحة مستحيلة، إضافة إلى أنها لا تخلو من مأزق أخلاقيّة وسياسيّة: إن بوبر يبين في الجزء الأول من "المجتمع المفتوح" كيف أصبح التغير مع هيراقليطس قانون يحكم العالم والموجودات وبالتالي كل المجتمعات الإنسانية. فكل الأشياء لا تثبت على حال وتستحيل بذلك كل معرفة واضحة وحقيقية خاصة وأن هذا التغير يشمل الإنسان مصدر هذه المعرفة، حتى بارميندس الذي يقول بالثبات، فهو ينفي حقيقة أن الموجودات محكومة بالتغير والصيرورة، بل ينفي كل معرفة يقينية تكون مصدرها تجربتنا الحياتية اليومية والظواهر الطبيعيّة الإنسانية" ولقد علم بارميندس، أحد أسلاف أفلاطون الذين أثروا عليه تأثيراً كبيراً، أن المعرفة الخالصة للعلّة، كمقابل للرأي الخداع الذي تأتي به التجربة يمكن أن يكون موضوعها الوحيد هو عالم لا يجري عليه التغير، وأن المعرفة الخالصة للعلّة إنما هي التي تميّز اللثام حقيقة عن مثل هذا العالم. بيد أن عدم التغير وعدم انقسام الحقيقة التي اعتقد بارميندس أنه اكتشفها خلف عالم الأشياء الفانية، كانا غير متعلقين تماماً بهذا العالم الذي نحيا ونموت فيه.¹ "الموجودات لا تمدّنا بمعرفة يقينية، لكن خلف هذه الموجودات هناك الوجود الذي هو علّة وجودها، وهو يتميّز بالثبات والخلود ولذلك هو مصدر كل حقيقة.

لم تمكّن أطروحة بارميندس أفلاطون من إنقاذ المعرفة أو فهم وتفسير الظواهر الفيزيائية والاجتماعية، فهي تدعو في نهاية المطاف إلى تجاهل والتغاضي عن هذا العالم المتحرّك والمتدفق والمتجه إلى الفساد والتفسّخ بخطى حثيثة، ولكنها تترك المجال لأطروحة السفسطائيين القائلة بأن المعرفة حسية بالأساس وبأنها نسبية. إذا فالتغيّر والصيرورة كقانون يحكم عالم الأشياء والناس موضع اتفاق كل من الفلاسفة السابقين لسقراط والسفسطائيين ولم يكن لأفلاطون أن ينكر ذلك، لاسيّما أنه عاش الحروب والصراعات التي اشتدت بالمجتمعات اليونانية، ولكنه "داعبه الأمل في أن يكتشف وسائل إنفاذه متسلّحاً بحقيقة وجود عالم ثابت وأزلي يكون أصل وعلّة وجود العالم المادي. ولقد استمد من أستاذه سقراط الذي اكتفي بأن يكون "علماً أخلاقياً أزعج كل أنواع الناس، وأرغمهم على التفكير وعلى التفسير، وعلى أن يعللوا أسباب أفعالهم ضرورة البحث عن القواعد الأخلاقية التي تكون علة لأفعالنا ومبررة لها، وكذلك البحث عن الفضيلة، الخير والعدل والسعادة ليس في أفعالنا وتصرفات الناس المتعددة المتناقضة بل في أصلها وجوهرها. فلا يمكن أن نحكم على أفعالنا وميولنا إلا إذا كانت هناك جواهر أو تعريفات كليّة للخير أو للعدالة مثلاً."²

¹ كارل بوبر، المجتمع المفتوح وأعداؤه، ج.1، ترجمة السيد نفاذي، دار التنوير، للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1998، ص.38.

² كارل بوبر، المجتمع المفتوح وأعداؤه، ج.1، ص.38.

يمكن القول كما استنتج أرسطو أن سقراط حاول من جهته أن يبحث في العلل الأولى أو الوجود الحقيقي في مجال الأخلاق، الأحكام والتعريفات، وهذا يعني أن هناك اهتمام وانشغال بتبعات ومشاكل عملية وسياسية لمشكل المعرفة المتورطة مع فكرة بل حقيقة التغير، التحول والصراع، لكن سقراط لم يقدم في الحقيقة ما يمكن أن نسميها الجواهر أو المعاني الثابتة التي يمكن الرجوع إليها لكي نحكم على أفعالنا أو نستطيع توجيهها، لقد دعي الناس بان يعرفوا أنفسهم بأنفسهم، بان يبحثوا عن علل أفعالهم وعن أصل الخير والفضيلة الكامن في كل إنسان: فالأفعال والتشريعات والحكومات يمكن أن تتغير وتبدل، لكنها تكون خيرة إذا كانت مستندة إلى أصل ثابت وتعريف كوني للخير وتكون على قدر من الفضيلة إذا كانت تبتعد أكثر ما يمكن من الرذيلة وتتماهي مع جوهر الفضيلة.

إن نظرية المثل هي نتيجة لمحاولة أفلاطون إنقاذ المعرفة بالبحث عن جوهر كل شيء مادي متغير وكذلك جوهر أو تعريف¹ لكل ممارسة أو حكم كالخير والعدالة والسعادة أو العفاف والشجاعة: "إن الصور أو المثل الكاملة والخيرة تسبق في الوجود نسخها، الأشياء الحسية، وهي شيء ما يشبه الأسلاف أو نقاط البدء لكل التغيرات في عالم التدفق".²

إن العالم الفيزيائي يحكمه التغير والفساد، وهذا العالم يشمل الإنسان والمجتمعات والدول والتشريعات. أما عالم المثل فهو ثابت، خير، وهو بمثابة النماذج أو الأصول للعالم الذي يحتوي على مجرد نسخ: فالثبات خير والتغير شر، لأن الكامل لا يتغير ويفقد كماله كلما خضع للتغيرات الخارجية: "أو ليس، يقول سقراط مخاطباً أدمينيتس، أفضل الأشياء في الوجود أقلها قبولاً للتغير بتأثير خارجي".³ إذا كانت المجتمعات والدول في تغير مستمر من خلال الحروب والصراعات الداخلية والانقلابات، فإن هذه المجتمعات تتجه بإطراد نحو التفسخ والانحلال لأنها تفقد في كل حالة تغير نسبة أكبر من التماثل والتشابه مع المجتمع المثالي أو الصورة الحقيقية للدولة أو المدينة الحقيقية. فالدولة المثالية الكاملة هي الصورة والمثال الحقيقي لكل الدول والمجتمعات المتغيرة وهي نقطة البدء لها مما يعني أن الدولة المتأخرة زمنياً هي الأقل تشابهاً مع الدولة المثالية، وبالتالي الأكثر انحلالاً وتفسخاً لأنها تعيش تطورات اقتصادية واجتماعية وثقافية و تحكمها صراعات طبقية سياسية داخلية وحروب مع غيرها من الدول.

إن هذا العالم الذي تكوّنت صورته منذ هوميروس وهزيود إلى بروتاغوراس وهيراقليطس وبارميندس على أنه مسرح للصراع والتصارع بين الأضداد والتغير المستمر من خلال التفاعل بين العناصر المادية في ما بينها ومن خلال الصراع بين الأفراد والمجتمعات الإنسانية. ولكن، تكونت فكرة التغير كفساد وانحطاط، لأنه بسبب التغير يكتسب الشيء ما ليس له وما لا يتوافق مع طبيعته وبالتالي، يستحيل أي قول ثابت وحقيقي بشأنه، وكذلك لأن كل تغير يكون متبوعاً حتماً بحالة تغير أخرى: يقول بوبر أن كل الأطروحات والأفكار التي تروجها الأقاصيص والملاحم وفلسفة أفلاطون تعبر كلها عن حالة القلق والتوتر والريبة التي كانت نتيجة للصراعات والحروب المتواصلة بين المجتمعات اليونانية، والصراعات الطبقية. لم يكن أي شيء يدعو إلى الطمأنينة والاستقرار، فالتحالفات تتغير والأعداء تغدوا أصحاب والأصحاب أعداء والأنظمة السياسية تتغير بسرعة والحرب مستمرة وهو ما تشهد به الحرب التي قامت بين اسبرطة وأثينا، والتي يتعمق في تحليلها بوبر في الجزء الأول من " المجتمع المفتوح وأعداؤه" (الفصل العاشر، ص.169).

لقد كان فعلاً شعور بفقدان الوحدة وإحساس بالضياع وبداء وكأن الطبيعة والآلهة قد تخلت عن الإنسان في العالم ليواجه مصيره ويتحمل مسؤولية أفعاله وقراراته وظهر الحنين إلى عهد الأسلاف والأجداد - وهو شعور تعيشه الناس في كل مرحلة توتر

¹ كارل بوبر، المجتمع المفتوح وأعداؤه، ج.1، ص 41.

² نفس المرجع، ص 46.

³ أفلاطون، الجمهورية، الكتاب الثاني، ترجمة حنا خباز، ص.77. مؤسسة هندواي، 2017.

وتغيّر اجتماعي وسياسي- ونظرية المثل في فلسفة أفلاطون لم تكن إلا حل جريء ومغري لمشكل المعرفة ولمشكل سياسي معاً، وكانت نتيجتها المذهب التاريخاني الذي يمثله بوبر في الدعوة إلى العودة إلى "المجتمع القبلي" وإلى الأرسطراطية البدائية لأن هذا المجتمع هو الممثل الأقرب إلى المجتمع المثالي والكمال: إن التاريخ الإنساني عند أفلاطون هو مسار للتحوّل من الأكمل إلى الأنقص ومن الخير إلى الشر ومن الأقل فساداً إلى الانحلال والانحطاط الكلي، والحل العملي هو إيقاف هذا التغير. إن هذا الحل هو الإجراء الأولي الضروري في كل الأحوال، ذلك أن المدينة الفاضلة التي ينحتها لم يقرر أنها قد وجدت أو أنها ستوجد يوماً ما، لكنها في النهاية هي النموذج للدولة الثابتة أو كما يصفها بوبر بالمجتمع المغلق الذي يصمد أمام كل تغير وكل تطور: وليس من المهم تحليل نقد بوبر لنظرية أفلاطون السياسية بقدر ما هو هام وعاجل أيضاً توضيح كيف أن التاريخانية كانت المذهب الذي أدّى بأفلاطون إلى تكوين "مدينته الفاضلة" وتفسيره للعدالة وللنظام السياسي الأفضل الذي يمثله الفلاسفة. وبالتالي فهذا المذهب التاريخاني المتشائم يدعوا ويؤسس لنظام شمولي استبدادي وإلى مجتمع مغلق.

إن الفلسفة السياسية الأفلاطونية تقوم على مسلمة: أن الدولة يجب أن تكون فوق كل الأفراد والطبقات، أن النظام السياسي الخادم للدولة تكون سلطته كلية وشاملة ولا يترك المجال للقرارات الفردية والشخصية وذلك لمنع كل تغير اجتماعي. فالدولة لا يمكن أن تستمر ولا يمكن أن تكون صالحة، في نظر أفلاطون، إلا إذا حافظت على الثبات والاستقرار و"الطبقية الاجتماعية": وما شيوعية الأطفال والنساء للحكام والمحاربين ومنعهم من التملك إلا من أجل الحفاظ على استقرار النظام السياسي، الذي يكون مهدد بالتداعي والانشقاق جزاء صراع الحكام من أجل النفوذ الاقتصادي أو خضوعهم لميولات وإملاءات أصحاب النفوذ الاقتصادي.... على الدولة أن تمنع كذلك كل تغير يمكن أن يطال الأفراد في ثقافتهم ووضعيتهم الاجتماعية والاقتصادية فلا يمكن أن يرتقي الإسكافي مثلاً إلى تاجر أو يتحوّل التاجر إلى بحار: إن التغير والفوضى في المجتمع هو نتيجة للتغير في الأفراد والطبقات والعلاقات الإنسانية. إذا كان التغير والانحطاط هو قانون التاريخ والأشياء فعلي الدولة أن تقاوم كل تغير في نظامها السياسي والاقتصادي أولاً، ثم تقف أمام كل تغير آخر ممكن، وهذا يتطلب طبعاً ولزوماً سلطة استبدادية وشمولية ورقابة مشددة على الأفراد من خلال اختيار وفرض كل ما يتعلق بالحياة الخاصة لديهم من نظم تعليمية وتربوية وحتى النمط الفني والموسيقي.

وإذا كان الفرد الناقص عرضة للتغير والتفسخ لاسيما في ملكاته وأخلاقه- ذلك أن الفرد الكامل هو الأقل عرضة للتغير، والكامل من الناس قلة قليلة -فعلى الدولة أن تحاول جاهداً منع هذا التغير فيه (إلا إذا كان تغيّر نحو الأفضل). إن الدولة العادلة، الخيرة والحكيمة هي التي لا يطال المجتمع فيها أي تطور أو تغير وإن الدولة الفاضلة هي التي يحكمها حكماء وفلاسفة، ولكن فلاسفة أفلاطونيين وليس مصلحين كبرقليس أو ديمقريطس أو سقراط. سقراط الذي دعى إلى أن يغيّر كل فرد نفسه نحو الأفضل ونحو الخير، وأن يحاول جاهداً أن يكون مسئولاً عن أفعاله وأقواله تجاه نفسه وتجاه الآخرين.

وعموماً، فقانون التغيّر (نحو الانحطاط) الذي يحكم التاريخ في نظر أفلاطون، - وكما يقول سقراط مخاطباً أدميندس في الكتاب الثاني من الجمهورية: "فكلّ ما هو في حال حسنة باعتبار الطبيعة، أو باعتبار الفن، أو باعتبار كليهما، هو أقل تعرضاً للتغيّر بتأثير غيره فيه."¹ - هو قانون كوني وضروري وبالتالي فإن الاستبداد والظلم والتسلط ضروريين ولإزمين للحكام وللأجهزة الحكومية من أجل إيقاف هذا التغير. هكذا يظهر جلياً أن التاريخانية (الأفلاطونية) لا تؤدي سوى إلى الانغلاق والشمولية والاستبداد، الذي لن يحقق الثبات والاستقرار، ولكن لن يكون سوى الهدوء الذي يسبق العاصفة.

¹ أفلاطون، الجمهورية، الكتاب الثاني، ترجمة حنا خباز، مؤسسة هنداي، 2017.

هيقل و العقل المطلق

يقارن بوبر في الجزء الثاني من كتاب "المجتمع المفتوح وأعداؤه" بين التاريخانية الأفلاطونية والتاريخانية الهيجلية، الذي يعتبرها امتدادا للفكر الأرسطي: فهيقل يجعل من الصور أو الجواهر محايدة أو مجسدة في الموجودات الطبيعية، وبالتالي تصبح الأشياء المادية المتغيرة والمتصارعة مجسدة لمراحل تطور الفكرة أو الجوهر الذي يخصها، الذي بدوره أكثر يكون حضورا وتجسيدا في مرحلته الأخيرة من التطور¹. خلافا لأفلاطون، يبين هيقل أن حركة الموجودات وتغيرها لا يمثل ابتعادا عن كمالها واتجاهها نحو الانحطاط أو التفسخ الكلي بل هي حركة نحو التقدم والكمال وهذا العالم المادي يحكمه قانون الصيرورة والتغير لأنه يمثل التقدم المطرد لظهور وتجلي العقل المطلق عبر التاريخ: وكل مرحلة تمثل سابقها وتتضمن المرحلة الآتية. كما يبين بوبر، فإن هيقل مثل أرسطو يقول بوجود علة غائية لكل فكرة، وتحقق كل فكرة عنها من خلال ظهورها في العالم المادي عبر مراحل تاريخية مختلفة وتجسدها في أجسام مادية متناظرة: لا يمكن لنا مثلا أن نفهم جوهر الفن أو جوهر الفلسفة إلا بتأمل تاريخ ظهور كل جوهر من البداية، لأن التاريخ هو مسرح تطوره وظهوره أو تجليه: فالعقل المطلق الذي يحكم الكون يمرّ بمرحلة الطفولة التي يمثلها الشرق ومرحلة المراهقة المتمثلة في الحضارة اليونانية ومرحلة الكهولة التي يمثلها الرومان ثم مرحلة الشيخوخة أو مرحلة التجلي المطلق التي يمثلها الغرب الحديث (أوروبا الغربية).

كذلك ندرك جوهر الفن أو جوهر الفلسفة عبر مراحل تطورها التاريخي الذي يماثل تطوّر العقل المطلق، كذلك يتطلب معرفة حقيقة الدولة معرفة جوهرها الموجود في تاريخ كل أمة وكل مجتمع بصراعاته وحروبه وكفاحه من أجل البقاء أو السيطرة، ذلك أن الدولة هي تجسيدا للروح المطلق للشعب الذي تمثله، وبالتالي فإن إرادة الدولة واختياراتها ومصيرها هي إرادة الشعب واختياراته ومصيره: إن المجتمع بدون دولة أو النظام السياسي الذي يحكمه لا يساوي شيئا لأنّ الدولة هي العقل المطلق الخاص بالمجتمع المتعين.

وبطبيعة الحال يمكن التماس تبعات خطيرة لمثل هذا الفكر مثل أن يضحي كل رفض أو نقد لقرارات وتوجهات الدولة أمر غير ممكن وغير منطقي لا سيما وأنّ هيقل يقول أن الدستور هو الحرية والعدالة متجسدتان، وهما النتيجة والغاية النهائية له². وإن الدولة الحرة والقوية هي التي تفرض سلطتها على الدول الأخرى بعد أن تنتزع منها الاعتراف: فجدلية السيد والعبد لا تشمل العلاقة بين الأفراد وبين الطبقات فحسب، بل تشمل أيضا العلاقة بين الدول والمجتمعات.

وإذا كان التاريخ هو مسار تجسد العقل المطلق، فإنّ الدولة والحضارة المهيمنة عالميا هي التي تجسّد آخر تجليات هذا العقل في العالم، وإذا كان العقل هو الذي يتحكم في التاريخ الطبيعي والإنساني فإنّ ما يحصل هنا والآن، أي ما هو واقع، هو التشكيل المادي للعقل والمتضمن لجوهره.

إن كل ما يجري في هذا العالم من تغيرات، حروب وكوارث إنسانية وطبيعية هي ضرورية من أجل التحقق الكامل للعقل المجرد أي التطوّر نحو الكمال والخير الاسمي والعدالة الإلهية، وما الكائنات البشرية والمجتمعات سوى عناصر مادية وأدوات من أجل تحقيق الحكمة والعدل الكوني، هي التجسد المادي المتطور للفكر وأداة عمل الجدلية عبر المراحل التاريخية المتعاقبة.

يقول بوبر أن فلسفة هيقل تمثل تاريخانية غير أصلية وغير شريفة خاصة وإنها تقوم على فكرة وحدة الأضداد التي قال بها هيراقليطس، وكما يقول بوبر، فإنّ وحدة الأضداد هذه هي أساس الجدل الهيجلي: فالأضداد المتصارعة هي واحدة لأنها تنشأ

¹ K. Popper, S.O. T.2, Hegel et Marx, Édition de seuil, Paris. 1979, p.p.24.25.

² K.Popper, S.O T, 2, Hegel et Marx,T.2 p.30.

عن مصدر واحد نتيجة التغير الذي يلحق به حسب الفكر الهيجلي، فهي تتصارع لتنشئ عنها وحدة أكثر تقدماً من الوحدة السابقة، هي بمثابة تأليف أو تركيب يستبق ظهور صراع جديد بينه وبين نقيضه.

يقول بوبر مشيراً إلى الجدل الثلاثي أو المثلث (أطروحة- النقيض- التأليف) ونظرية الوحدة الهيجلية: "إنها متاهة ترقص فيها فلسفات كل من هيراقليطس، أفلاطون، أرسطو، وكذلك فلسفة روسو وكانط، وذلك من أجل إغواء الجمهور الغير متعلّم."¹

إذا كان فكر هيراقليطس يعجز أو لا يتجرأ على فهم معني هذا التغير والصراع اللذان يحكمان العالم فلأن هربما كان نهي وتشكل داخل مناخ تتعدد فيه الآلهة وتتصارع مثلما هو الحال بين الناس، فإن الفلسفة الهيجلية (التي ليست أكثر من مجرد دمج ومزج لفلسفات سابقه اليونانيين مع التراث الفلسفي الغربي (سبينوزا، ليبنتز، روسو، كانط....) وليس إلا إعطاء الفكر بعده المادي والتاريخي الواقعي) كان يحكمها الفكر الكنسي المسيحي ecclésiastique بدأ فعلا في فقدان السلطة التي كانت تمثلها الكنيسة ليمركز ويحتوي بلواء القوى الاجتماعية السياسية الجديدة، ويمكن أن نتساءل هنا هل نجح الفكر الفلسفي والعلمي في تعزيز والإبقاء على النظام الإقطاعي في ألمانيا(على الأقل في عصر هيغل) ومواجهة الليبرالية البرجوازية التي تطمح للتوسّع.

يقول بوبر أن هيغل كان من بين المؤسسين للقومية الألمانية التي كانت قد ظهرت لمحاربة الأفكار الإمبريالية والمساواتية التي كانت تمثلها فرنسا في عهد نابليون في أوائل القرن التاسع عشر. كانت ألمانيا إلى ذلك الوقت خليط من العرق السلافي والعرق الجرمانى، ولكن الفكر القومي الصاعد في وجه الاحتلال الفرنسي أعاد تشكيل ألمانيا على أسس عرقية ولغوية جرمانية وأصبحت القومية الجديدة تقوم على فكرة أن الأمة أو القوم هو بمثابة شخص أو عائلة كبيرة تجمعها عادات و تقاليد و قيم مشتركة و ضمن حدود جغرافية.

إن القومية هي الأساس نتيجة للدفاع عن حقوق وحرية الشعب وهي تعبير عن إرادة الاستقلال والانعقاد من ظلم وسيطرة المحتل وترجم الذود عن الهوية الثقافية والتاريخية للمجتمع. لكن، لا يمكن تبعا لذلك اختزال شعب أو مجتمع ما في الدولة، في عرق، دين، أو لغة معينة. ، وكما يقول بوبر: "إنه من الخطير أن تتأسس نظرية سياسية على تصور أو على أسطورة."²

ومع ظهور القوميون الجدد المطالبون بإصلاحات ديمقراطية، ولما كانوا ذات قوة تهدد السلطة الملكية البروسية لقوة إيمانهم بالحرية و بالمبادئ التي عبرت عنها فلسفة الأنوار، وربما تهدد أيضا الدولة التي لم تنتهي بعد من إعادة التشكل، يقوم هيغل بالرد عليهم في "فلسفة الحق" بالقول بأن سيادة الشعب وحرية تتجسد في السيادة المطلقة للملك، وبأن الشعب بدون دولة قوية نافذة لا يمكن أن يكون سوى كتلة بشرية غير منسجمة ومجموعة قوى عمياء ومتضاربة. إن جوهر الشعب هو الدولة أو السلطة السياسية الكائنة وهي التحقق الفعلي والمادي له، ولذلك يجب على كل القوى والأحزاب أن تعضد هذه الدولة لأنها لا يمكن أن يكون لها وجود حقيقي خارج سلطتها.

¹ K.Popper, S.O, T,2, p.28.

² K.Popper, S.O, T.,2.p.36.

إن هذا الشعب قد حقق جوهره عبر التاريخ، وهذا الجوهر تمثله الدولة في سلطة الملك، وهي نتاج للصيرورة التاريخية ولسار ثقافي وحضاري طويل مرّ بها جوهر أو العقل المطلق للأمة أو القوم: وبالتالي تفقد الأمة وجودها الحقيقي ومعناها خارج الدولة، و تتناقض مع ذاتها عندما تحاول أن تحد من سلطة الدولة أو تغير في دستورها.

يبدو أنّ هبيل كان يحاول بوعي مواجهة وصدّ موجة الليبرالية البرجوازية الداعية للحرية السياسيّة، والحريات الفردية والمساواة - التي كانت في بريطانيا نموذجا متحقّقا- ولكن لم يكن ذلك إلا على حساب إصلاحات سياسيّة ممكنة ومطالب وخطابات ثقافية معرفية بدأت تظهر في ألمانيا وكما يبين بوبر فإنّ شوبنهاور¹ كان على حق عندما حذر من خطورة الخطاب الهيجلي الساحر على الأجيال القادمة: إضافة إلى فكرة أن الدولة ممثلة في الملكية البروسيّة هي روح القوم الجرمان (الألماني) فقد ترسّخت مسلّمة تقول بأنّ التاريخ الإنساني قد وصل إلى مرحلة الاكتمال التي يمثّلها العنصر الألماني والدولة القوميّة البروسيّة (Prusse)، يعرّز هيجل هذه التاريخانيّة بتمجيد الحرب باعتبارها المادّة التي يحقّق بها العقل المطلق تجسّده في قوم (الجرمان) وفي الحضارة (الغربية) كذلك باعتبارها الوسيلة الوحيدة الكفيلة بتحقيق سيطرة القوى على الضعيف من الدول وتجسيد قوة وهيمنة الحضارة.

لقد أسّست المثاليّة الهيجليّة لرؤية اختزاليّة للعالم وللإنسان و تولّدت عنها النزعة العرقيّة والنظم السياسيّة الشمولية والكليانية التي تقوم على العنصريّة وتمجّد القوة والعنف، متشائمة تعتقد بأن التاريخ يحكمه الصراع والحرب وأن البقاء للأقوى. فمن الفلسفة الهيجليّة يمكن أن نستنتج أنّه لا يمكن للفرد أن يحقق ذاته إلا داخل المجموعة أو القوم الذي ينتمي إليه تاريخيا وثقافيا، القوم لا يحقق وجوده واعتراف الآخرين به إلا من خلال الدولة التي تحكمه. الحرب هي أرقى ما يمكن أن يجسد قانون التغيير والصيرورة الذي يحكم التاريخ، ومن الأجدر أن تكون الحرب مع الآخرين (النقيض)، على أن تكون حرب أهلية داخل المجتمع، وأخيرا، كل ما تستخدمه الدولة هو ايجابي وصالح وخير طالما كان الهدف هو تعزيز قوتها وتوسيع سلطتها وانتصارها في الحروب ضد الدول الأخرى.

يقول بوبر أن فلسفة هيجل هي من بين الخطابات التي تأسّست عليها النزعات الشمولية والاستبدادية وأعطتها الإطار النظري المقنع والمؤثر لا سيّما بعد استثمار التقدّم العلمي والتكنولوجي، فهو يقول مثلا أن الشموليّة الحديثة كانت نتيجة لفشل الاشتراكية الديمقراطية²، وهو ما يعني أنّها كذلك ردّة فعل ضد الليبرالية الاقتصادية التوسعية وضد الفردانيّة التي تهدد الهوية الثقافية والاجتماعية والتاريخية للفرد وللمجتمع على السواء. فالفاشيّة مثلا أو النازيّة كانت نتيجة لمحاولة صدّ توسّع وهيمنة الامبريالية أو الرأسماليّة التوسعيّة، ولكنّها أصبحت بدورها شمولية واستبدادية ألغت كل توجّه سياسي مآزن وعقلاني يمكن أن يحقق الحرّيّة والعدالة والمساواة في أن واحد.

- ماركس والحتميّة التاريخيّة

يستهلّ بوبر تحليله للتاريخانيّة الماركسيّة ببيان الحتمية التاريخية التي تتأسس عليها الفلسفة الماركسيّة، ومدى التقارب الكبير بينها وبين الفكر التاريخاني لميل (MILL) وكونت (Auguste Comte). فهيجل وكونت يربطون تقدم المجتمع وتطوره بقوانين اجتماعية وتاريخية وبمراحل مترابطة تكون كل مرحلة تؤدي إلى الأخرى.

¹ Schopenhauer. A, Le monde comme volonté et comme représentation, Librairie Félix. Alcan, Paris.1912, Traduit en français par Auguste Burdeau.

² K. Popper, S.O, T 2, p.41.

يمكن أن نقول أن الأطر العامة والمبادئ الأساسية للمنهج العلمي قد وضعت وتم العمل بها قبل مجيء الفكر الماركسي، فالتطور العلمي قد أتاح للفكر الاجتماعي منهج ومبادئ سيتقيد بها الفكر الماركسي؛ فالحتمية الاجتماعية وإن كانت تختلف المادّة أو الموضوع الذي تحكمه إلا أنها كانت حاضرة في كل فكر فلسفي واجتماعي للقرن التاسع عشر. تولّد الاعتقاد في الحتمية عن مبدأ السببية أو العلية التي تعتبر من المبادئ الأساسية للعلم الطبيعي.

تعيش المجتمعات الحاضرة، بالنسبة لكونت، في المرحلة الوضعية وهي المرحلة الثالثة التي تلي المرحلة الميتافيزيقية والتي تصبح فيها العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية أدوات فهم وتفسير العالم والمجتمع وأساس الممارسة السياسية، أما ميل فيقول بأنّ المجتمع يتقدم تبعاً للطبيعة الفكرية أو الروحية للإنسان، وأنّ قوانين التطور التاريخي والاجتماعي يجب أن تفسر بالقوانين التي تحكم التطور الروحي¹. المجتمع يتقدم لأنه من طبيعة الإنسان النفسية والروحية النزوع نحو التقدم والازدهار. وبالتالي فإنّ المجتمعات الغربية في العصر الحديث تمثل عصر التقدّم والازدهار والرقي بفضل التقدّم العلمي والتكنولوجي.

يتأسس الفكر الاجتماعي في الفلسفة الماركسية على حتمية أخرى مخالفة للحتمية التاريخية الكونية لكونت ومخالفة للحتمية النفسية الروحية لميل، وللحتمية العقلية والروحية لهيغل. إنها حتمية مادية اقتصادية: فالمجتمعات تطوّر وتتقدّم وفقاً لتطوّر اقتصادي مادي يرتبط بتطوّر وسائل الإنتاج وكذلك بطبيعة العلاقة بين الأفراد وبين الطبقات الاجتماعية.

إنّ المراحل التاريخية (المشاعية، الإقطاعية، الرأسمالية) هي حالات يمر بها المجتمع حتماً للوصول للمرحلة الاشتراكية ثم الشيوعية: إذا كان المجتمع محكوم بقوانين (اقتصادية) ضرورية فلا يمكن تبعاً لماركس أن نفهم الظواهر الاجتماعية ومختلف الأطر الثقافية والدينية إلاّ بفهم الحالة الاقتصادية والمادية التي تحكمها، وتطور المجتمع يحركه الصراع الحتمي بين الطبقات الاجتماعية، وكل القوانين والمنتجات الثقافية والمنظومات الأخلاقية هي مجرد بنى فوقية تؤسسها الوضعية الاقتصادية للطبقة المسيطرة على وسائل الإنتاج. فكل البنى الثقافية والعقائدية والسياسية هي مجموعة إيديولوجيات تستوجب إيديولوجيا مناقضة تناسب طبقة العمال من أجل المرور إلى مرحلة الاشتراكية. من أجل الوصول إلى مرحلة الاشتراكية ومن ثمة إلى مرحلة الشيوعية لابد من نظرية ثورية تسهّل عملية التوليد التاريخي من خلال الصراع الطبقي.

لم يكن ماركس داعية من أجل الحرية والمساواة والعدالة فحسب ولكنه، كان نبياً يدعى أن الشيوعية هي حتمية تاريخية، وهي المرحلة الأخيرة التي يقف عندها التطور الاجتماعي بعد مرحلة الاشتراكية التي يستولي فيها العمال على الحكم، والشيوعية لا تتميز بغياب الملكية فحسب، بل أيضاً بغياب السلطة السياسية، وربما هذا يرجعنا إلى اعتقاد ماركس بأنّ كل حكم سياسي أو نظام سياسي هو من إفرازات الحالة الاقتصادية وهو نتيجة لوجود طبقة مهيمنة اقتصادياً، وهو ما يعني أن كل سلطة سياسية، كل القوانين والمعايير هي من أجل حفظ وتدعيم سيطرة الطبقة الاجتماعية الحاكمة.

لئن حاول ماركس أن يحزّر علم الاجتماع من التفسير النفسي والتفسير الديني لجعله علم مستقل كما يبيّن كارل بوبر، إلاّ أنّه سيحصره داخل العلة المادية الاقتصادية، أي أن تصبح الوضعية الاقتصادية هي منطلق تحليل وفهم كل ظاهرة أو حالة اجتماعية، وتفسير الصراع الطبقي ومختلف أشكال الاستغلال والظلم. لكن، هل يمكن أن يكون الإنسان حرّاً أو قادراً على تحقيق ذاته إذا كان فكره وأماله وإبداعاته وأخطائه وتصنعها وضعيته الاقتصادية ويوجّهها السعي الدائم للتملك والسيطرة². يتطور المجتمع، حسب الفلسفة الماركسية وفقاً لقانون طبيعي حتمي، وهو قانون يحكم مختلف المجتمعات الإنسانية عبر التاريخ، وهذا القانون الثابت هو قانون الصراع الطبقي، والمادية التاريخية عند ماركس تعني أن التاريخ ليس مسار تطور أو

¹ Popper. K, S.O, T.2, p. 63

² Popper .K, S.O, T.2, p.67 .

تقدم للوعي، للروح (هيقل) وليس نتيجة لزوع الإنسان الطبيعي نحو المادي والسعادة (النظرية الاقتصادية)¹. بل إن التاريخ تحكمه جدلية بين الإنسان والطبيعة يطور من خلالها الإنسان وسائل الإنتاج من أجل إحكام سيطرته وسيطرته على الطبيعة وتطويعها لتحقيق رغباته وحاجياته، وما مرحلة الاشتراكية حسب الفكر الماركسي إلا فترة يتم فيها انتزاع وسائل الإنتاج من آلات ومعامل وكذلك السلطة السياسية من طبقة البرجوازية الرأسمالية على يد طبقة العمال "البلوريتاريا"،²

إن الإنسان هو تنظيم طبيعي يتطور، والوعي أو الفكر هو من إفرزات مرحلة متأخرة من مراحل تطور هذه المادة³. وهذه الجدلية المادية ستبلغ درجة الاكتمال والانتها في مرحلة الشيوعية التي لا تعبر عن تحقق الحرية والعدالة بقدر ما تمثل نهاية تطور وتقدم وعي الإنسان الناتج عن تطوره كمادة في علاقتها بالطبيعة وبالآخرين وبالتالي اكتماله وكماله⁴. فالبلوريتاريا لا يمكنها أن تستولي على السلطة السياسية إلا عندما تكون مهياة وقادرة على الوعي بذاتها و عندما تبلغ من النضج والاكتمال ما يؤهلها لبناء الأسس المادية والثقافية التي تطلّبها مرحلة الشيوعية.

يحتوي كل نظام اجتماعي وسياسي، لاسيما النظام الرأسمالي، على تناقضات وثغرات تؤدي إلى مجاعات وعطالة وأزمات اقتصادية واجتماعية. ففي ظل كل نظام اجتماعي، تطوّر وسائل الإنتاج وتنشأ حالة من الوعي الطبقي وتتشكل أهداف وتطلّعات جديدة لمختلف الطبقات الاجتماعية. وعندما يستوفي هذا النظام الاجتماعي شروط بقائه وتنتهي صلاحياته، تتولّد بذور الثورة ضد هذا النظام من طرف الطبقة العاملة لأنه أصبح غير قادر على استيعاب الأزمة، وعلى مسيرة التطور الفكري ومتطلبات الطبقة التي سوف تمثل النظام الاجتماعي المقبل.

يقر بوبر بأنّ، الشخصيات الفاعلة في مجرى التاريخ ليست، بالنسبة للفلسفة الماركسية، سوى دمي تحركها خيوط الاقتصاد بقوى تاريخية تخرج على نطاق السيطرة⁵. فبوبر يدافع على المادية الماركسية ضد التفسيرات والتأويلات الشائعة بالقول بأن هذه المادية لا تقوم على نفي أو استهجان ماركس للوعي والفكر الإنساني بل تقوم على حقيقة أن الوضعية المادية (الطبقية) هي التي تؤسس النظم الثقافية والأخلاقية والمعايير القانونية. إن الجدلية المادية هي قلب العلاقة التي أقامها هيغل بين الوعي والمادة، لتصبح تبعا لذلك النظم الاجتماعية والثقافية والسياسية عاكسة للعلاقة الجدلية بين الإنسان والطبيعة وممثلة للخلق والفعل الإنساني في الطبيعة، وتصبح بذلك الحضارة وليدة طبيعة العلاقة الجدلية بين الإنسان والطبيعة ووليدة تطور وسائل الإنتاج⁶.

وتكون الحرية الحقيقية هي أولا الوعي بالضرورة التي تربطنا بالطبيعة ثم تقلص الارتباط بها إلى أن يصبح العمل إبداع لا تفرضه غايات خارجية أو ضرورة اقتصادية واجتماعية ويصبح هذا ممكن مع التطور العلمي والتكنولوجي الذي يمكن الإنسان من السيطرة الشاملة على الطبيعة وعلى وسائل الإنتاج. فالعامل الذي هو مجرد وسيلة عمل وإنتاج في النظام الرأسمالي يصبح في مرحلة الاشتراكية واعيا بالعملية الإنتاجية التي يقوم بها، يكف عن كونه وسيلة إنتاج وأداة عمل لسلع غريبة عنه ولا يحتاجها ليكون منتجا لما تفرضه عليه العلاقة الجدلية بينه وبين الطبيعة فحسب.

¹ Ibid, p.65.

² Sève, L, Marxisme et théorie de la personnalité, Terrains, Éditions Sociales, Paris. 1969 p.78 (Manuscrits de 1844).

³ Ibid., pp.18-19.

⁴ Balibar, E, Cinq études du Matérialisme historique, F.Maspero, Paris. 1979, p.26.

⁵ Popper, K, S.O, T.2 p.70 (L'historicisme économique).

⁶ Ibid, p71.

تتطابق الوضعية الاجتماعية والتطور المعرفي والثقافي في المجتمع مع ظروف الإنتاج الاقتصادي التي تشكل بدورها طبيعة العلاقة بين الطبقات الاجتماعية وتحدد ملامح النظم السياسية: فإذا كان تاريخ الإنسانية هو تاريخ تطور العلاقة بين الإنسان والطبيعة (المادة)، فمن خلال هذه العلاقة تتطور وسائل الإنتاج إلى أن ينشأ اغتراب الإنسان في مرحلة البرجوازية عندما يصبح بدوره وسيلة إنتاج ومادة استهلاكية، فيصبح العامل مجرد قوة منتجة والرأسمالي هو المسيطر على وسائل الإنتاج وهو المتحكم في الثروة العلمية والثقافية يوجهها لما تقتضيه مصلحته الذاتية.

يقول ماركس إن تاريخ كل المجتمع هو تاريخ صراع بين الطبقات الاجتماعية، ووفق هذه التاريخانية الاقتصادية فإن مسار التطور والنمو الحضاري مرهون بصراع طبقي يؤدي إلى انتقال السلطة والنفوذ من الطبقة الحاكمة إلى الطبقة الجديدة التي استوفت شروط تشكلها وعمها بذاتها، فماركس يرمي عملية الانتقال إلى الاشتراكية بانتصار طبقة العمال أو "البلوريتاريا" على طبقة البرجوازية وانتزاع وسائل الإنتاج والسلطة السياسية منها. يستوجب هذا بطبيعة الحال قدرة معرفية وأخلاقية وتطور الوعي يعكس إرادة الإنعتاق من الاغتراب والعبودية داخل العملية الإنتاجية.

يتطور المجتمع متجها نحو الشيوعية، وما الاشتراكية إلا مرحلة تكون فيها الطبقة الحاكمة والمسيطرة سياسيا واقتصاديا وإيديولوجيا تضم وتستقطب اغلب الفئات الاجتماعية والمثقفين والسياسيين، ولكن تستلزم هذه المرحلة أن يكون العمال على قدر من الكفاءة والوعي بإخفاقات النظام الرأسمالي وبالمهام المطالبون بانجازها وأن يكونوا جديرين بتولي السلطة السياسية، ولكن كل هذا يتطلب أيضا، عقود من الحروب الأهلية المتواصلة والصراعات بين الأمم¹.

لقد أغوت هذه النزعة التاريخانية في الفلسفة الماركسية جيل من المثقفين وأوقدت شعلة الأمل في أن تتحقق يوما ما العدالة ويعم الخير والرخاء، ولكنها لم تنفك تقوي الإيمان بصلاية ورجاحة عقيدة الاشتراكية الماركسية، لقد تحول الإيمان بالكفاح ضد الظلم والاستغلال إلى الإيمان المطلق بصلاحيّة المذهب الماركسي وإلزامية تطبيقه، حتى أصبح تعصب وتشدّد معتنقي هذا المذهب يضاهي التعصب الديني والعرق.

خاتمة:

إذا كان تاريخ المجتمعات والشعوب، مثله مثل تاريخ الطبيعة والكواكب، يحكمه التغير، فذلك لا يعني أنه بالإمكان التنبؤ بالوجهة التي تسير إليها هذه المجتمعات، كما أنه لا يمكن أن نقر بوجود حتمية تاريخية أو غاية يتجه إليها التاريخ.

من الأكيد أنّ قانون التغير والضرورة هو قانون ثابت يحكم العالم الفيزيائي والطبيعي، لكن هناك دائما ما هو ثابت في خصم هذه الضرورة وهذا التغير الدائم الذي يطراً على أحوال الناس والمجتمعات.

يوجد مثلا ما هو ثابت من الأخلاق والقيم الإنسانية ومن مبادئ الخير والحق والعدل. كما أنه من الثابت أنّ المستقبل تحدده أفعالنا وسلوكياتنا ودرجة الوعي والمسؤولية التي يتحلّى بها الناس. إنّ الوعي وروح الانفتاح والمسؤولية لازمان من أجل ترسيخ وتدعيم قيم التسامح والإخاء والمحبة ومن أجل مناهضة الانغلاق التعصب التطرف.

قائمة المراجع:

1. كارل بوبر، المجتمع المفتوح وأعداؤه، ج1، ترجمة السيد نفادي، دار التنوير للطباعة والنشر بيروت، لبنان، 1998.
2. أفلاطون، الجمهورية، الكتاب الثاني، ترجمة حنا خباز، مؤسسة هنداي، 2017.

¹ Balibar .E, Cinq études du matérialisme historique, F. Maspero, Paris. 1979, p. 26 .

3. ر.بودون وف.بوريلو، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ترجمة سليم حدّاد، ديوان المطبوعات الجامعية، الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر، 1986.

4. Balibar. E, Cinq études du Matérialisme historique, F.Maspero, Paris.1979.

5. Bouveresse .R, Karl Marx ou le rationalisme critique, J.Vrin, Paris.1978.

6. K. Popper, Société ouverte et ses ennemis Tome.2, Hegel et Marx, Édition de seuil, Paris.1979

7. K.Popper, La misère de l'historicisme, Librairie Plon, Paris.1955.

8. Sève. L, Marxisme et théorie de la personnalité, Terrains, Éditions Sociales, Paris. 1969.

9. Schopenhauer. A, Le monde comme volonté et comme représentation, Librairie Félix. Alcan, Paris.1912,
Traduit en français par Auguste Burdeau.

الباي حسين بن علي ورجال القلم، بين التشريع المذهبي والتوظيف السياسي لبناء الدولة

legislation and political exploitation to build the state doctrinal Bey H'usayn Bin Ali and the men of the pen, between

د. صدق السلامي/مركز الدراسات الإسلامية، القيروان، جامعة الزيتونة، تونس

Dr. Sidk Sallami, islamic studies centre of Kairouan, ezzitouna university, Tunisia

ملخص:

استقطب الباي حسين بن علي مؤسس الدولة الحسينية في مجلسه "رجال القلم"، وتميزوا بتنوع أصولهم ومذاهبهم واهتماماتهم فمنهم الفقيه والمفتي والقاضي والمدرّس والكاتب والمتصوّف، فتعددت الكتابات التي تمجّد مآثر الباي وتخلّد ذكره وفاقته ما خصّص لخلفه: الأبناء والأحفاد، وهذه الكتابات تشمل السير والتراجم ونصوصاً فقهية وأخرى تجمع التاريخ والسياسة الشرعية وأدبيات السجال، وبالنظر في هذه النصوص ودواعي تأليفها يتجلى موقع المؤلف لتبرير فعل سياسي أو قرار تنظيمي أو الدعاية أو إعلان الولاء، ممّا يدعوننا إلى البحث عن الصلة بين التاريخ والخطاب وألياته القائمة على الانتخاب والانتقاء والتوظيف وأبعاده لتأسيس كيان سياسي له اختياراته.

الكلمات المفتاحية: حسين بن علي باي، رجال القلم، متصوّف، حنفي، مالكي، كورغلي، سياسة شرعية، خطاب.

Abstract:

The Bey H'usayn Bin Ali, the founder of the Husayni state, attracted the "Men of the Pen" to his council. They were distinguished by the diversity of their origins, sects, and interests, including the jurist, the mufti, the judge, the teacher, the writer and the mystic. There were numerous writings that glorified the exploits of the Bey and immortalized his memory, and surpassed others from his successors: sons and grandsons. These writings include biographies, translations, jurisprudential texts, and others that combine history, legitimate policy, and the basics of argumentation. By looking at these texts and the reasons for writing them, the author's position becomes clear to justify a political act, an organizational decision, a propaganda, or a declaration of allegiance. This invites us to search for the link between history and discourse, its mechanisms based on election, selection and exploitation, and its dimensions to establish a political entity that has its own choices.

Keywords: H'usayn Bin Ali Bey, Men of the Pen, Sufi, Hanafi, Maliki, Sharia Politics, Discourse.

مقدمة:

يتناول المهتمون بالشأن السياسي في وصله بالخطاب الديني آليات التوظيف والاستثمار والتطويع بين: السياسة والدين، فقد عرفت التجارب السياسية، ومنها تلك التي بسطت نفوذها في الأقطار العربية والإسلامية، استمالة الفقهاء والمفتين تشريعا لسطوة عسكرية وهيمنة سياسية، ليعود الفاعلون الدينيون أداة استقواء لمن يملك زمام الشأن السياسي تحقيقا لسبيل الهيمنة على جُلّ المجالات، ومن نافل القول الإشارة إلى تعدد الكتابات السلطانية وأدب نصائح الملوك وكل ما يتصل بالسياسة الشرعية أو المدحيات، لأن الكتابة تُصاغ في سياق عرض وطلب، ويعدّ الباي حسين بن علي (حكم 1705-1735 وقتل 1740م) مؤسس الدولة الحسينية بتونس أبرز البايات الذين عرف عهدهم كتابات تاريخية أو فقهية بطلب منه، وهي حاليًا بين محقق ونصوص مخطوطة، ولا يمثل الأمر مجرد مصادفة فالكتابة فعل قصدي لا تصدر من فراغ خاصة إذا دققنا النظر في دواعي تأليفها وتنوعها واختلاف سنوات تحبيرها، ويشمل التنوع مباحث تلك المؤلفات من التاريخ والتراجم والرسائل والتصوف والزود والفقهاء الحنفي والسياسة الشرعية وتنظيم التربية والتعليم، وكان التنوع بالنظر إلى أصحابها ظاهرا فهم يمثلون شرائح مهمة من أهل تونس على اختلاف انتماءاتهم المذهبية والاثنية والجغرافية: بين المالكي والحنفي ومن ذوي الأصول التركية والماليك والكوروغلية والمحلية والأندلسية ومن البلديّة والإفريقيين.

كيف كانت مظاهر توظيف الفقهاء والشرعيات سياسيًا؟ وما هي آليات استثمار التنوع المذهبي؟ وما هي دلالة استقطاب مجلس الباي لاختلافات رجال القلم من حيث أصولهم وانتماءاتهم في مسار بناء الدولة؟

1- أقلام متعددة في بلاط حسين بن علي واحتواء النماذج المعرفية:

تولى حسين بن عليّ باي سدة الحكم بعد التغلب على إبراهيم الشريف ودحر الداي محمد الأصغر¹، وهو ابن علي تركي الانكشاري، الذي قدم تونس وعمل تحت إمرة المراديين، أصله من جزيرة كريت اليونانية وعُيّن قائدا للحامية العسكرية بالكاف وتزوج بامرأة من قبيلة شارن أنجبت له ابنه حسين سنة 1675 م، ولذا يعدّ حسين بن عليّ كوروغليًا لنشأته في كنف أخواله وازدواج أصوله، وفي العاصمة شغل عدة خطط عهد الدولة المرادية حتى بلغ رتبة خزنة دار في عهد محمد باي بن مراد الثاني وأغمة صبايحية الترك في عهد رمضان باي، ورفع مراد الثالث إلى كاهية بدار الباشا وولاية دار الجبل لثقت به، وعيّن إبراهيم الشريف أغا صبايحية الترك، بعد اعتلاء العرش شهدت فترة حكمه أحداثا كثيرة منها حروبه مع الجزائر وعلاقاته مع الدول الأوروبية وتنظيمات التعليم بجامع الزيتونة وبناء المدارس وتنظيم القضاء، لم يرزق حسين بن عليّ بأبناء ذكور فعهد بولاية العهد لابن أخيه عليّ بن محمد باشا، ثم رزق الباي تباعا بأربعة ذكور من جارية جنويزية ممّا حدا به إلى سحب ولاية العهد تلك، وليتولّاها نجله البكر محمد الرشيد باي، أحداث كثيرة شهدتها فترة حكمه التي انتهت بالفتنة الباشية من 1735 إلى 1740، وانقسمت البلاد إلى صقّين: باشي وحسيّ، وكانت القيروان قاعدة لما بقي من نفوذه لتنتهي بقتله وهروب أبنائه إلى الجزائر، وفي خضمّ هذه الأحداث الممتدة جمع حسين بن عليّ في بلاطه وفي حلّه وترحاله عددا من المفكرين.

هذا التقليد يُسائر سُنّة ثقافية فقد احتفى بلاط الدايات والبايات بالفاعلين الدينيين ومنهم "رجال القلم" أي العلم مقابل "رجال السيف"، وإنّ المادة المصدرية تُؤكّد حضورهم في القصور والبلاطات، فعرفوا التنكيل زمن مراد الثالث الملقّب بمراد

1- Chérif (M.H.), Pouvoir et société dans la Tunisie de H'usayn Bin Ali 1705-1740, Publications de l'Université de Tunis, 1984, 2 Tome.

ببوالة سفاك الدّماء، وكانوا في حاشية حسين بن علي وابن أخيه علي باشا (1735-1756) الملقب بالأمر العالم¹، وقد أشار منصف التائب أنّ هذا الحضور منمّط، يحاول أن يتشبهه ببلاطات العظماء من الأمراء، ولا يعيننا في هذا السياق البحث في مظاهر التجديد قدر ما يعيننا الوصل بين الشّأن الديني والخطاب السياسي وآليات التّوظيف، هذا البلاط تواترت فيه أسماء لرجال القلم واستقطب جيل أعلام عصره² فمنهم يوسف برتقيز الحنفي المعروف بالإمام وأحمد برناز الحنفي وحسين خوجة الحنفي ومحمد سعادة المنستيري المالكي والوزير السراج الأندلسي المالكي، ولهؤلاء جميعا كتابات اقترنت بحكم الباي حسين بن علي فتبارت الأقلام في سرد مآثره، ولذا سنقرأ المين على مختصر القدوري والشّهيب المخرقة وذيل بشائر الإيمان وفرة العين والحلل السّندسية³، فهي جميعها كتابات في إظهار صاحب السّلطة ومدحه، ومن الفاعلين أسماء لم تخلف كتابات منهم القاضي علي شعيب والصغير داود التّابلي⁴ وعاشور عياط ومحمد زيتونة... فضلا عن مدرّسين عيّنهم الباي في جامع الزيتونة والمدارس والجوامع حتّى بلغ عدد المدرّسين أكثر من أربعين بالزيتونة بعد ترتيب التّعليم⁵، وتنظيم الجرايات والزواتب، وكان للباي صلة بأخرين في كبريات المدن ففي القيروان كان له أنصار ولذا اتّخذ المدينة قاعدة لحكمه في الفتنة الباشية، وفي صفاقس ارتبطت المدرسة الحسينية بالشيخ محمد الشّر في المؤدّب، واهتمّ حسين باي بعدد من الزّوايا والمدارس منها المدرسة الجمينية بجزيرة... هذا التنوع في أصول الفاعلين الدينيين مذهبيًا واثنيًا ومعرفيًا يُبين عن تعامل نفعي "ميكيافيلي" مع هؤلاء لاستثمار ما يُتيحه اختلافهم من خيارات وآراء وأحكام ولثقلمهم الرّمزي اجتماعيًا وثقافيًا.

اتّخذ حسين بن علي له ندماء يمثّلون لفيما من رجال القلم يستشيرهم ويتخذهم مسامرين ووسيطا في الحروب وأثناء الفتنة الباشية، فيستفتيهم⁶، والظاهر أنّ حسين باي كان على وعي بالدور الخطير الذي يضطلع به العلماء والشيوخ والأولياء، فحرص على زيارة الأضرحة والمقامات والمزارات⁷، ونلاحظ أنّ الفاعلين كانوا محلّ أخذ وجذب، عين الباي لابن أخيه علي باشا

¹- ينسب إليه تأليف في النّحو هو "دفع الملمّ عن قراءة التّسهيل بجلب المهمّ مما يقع به التّحصيل" منه نسخ بدار الكتب الوطنية بتونس أرقام 5188 و5189 و12360. وحسب علي باشا على مدارسه كتب كثيرة. انظر: السعداوي (أحمد)، تونس زمن حسين بن علي وعلي باشا 1705-1756 وثائق أوقاف من العهد الحسيني، دراسة وتحقيق، كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمتونة ومخبر الآثار والعمارة المغاربية، مجمّع الأطرش للكتاب المختصر، تونس، 2015، المكتبات: الكتب المحبسة على المدرسة الباشية الكائنة بحوانيت عاشور، ص 465-489 والكتب المحبسة على المحكمة الشّرعية من تونس المحمية ص 489-492 والكتب المحبسة على المحكمة الشّرعية بباردو المحمية، ص 492-493.

²- التائب (منصف)، بلاط باردو في عهد حسين بن علي 1705-1735، شهادة الكفاءة في البحث، إشراف د. محمد الهادي الشّريف، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1990، ص 38 وما بعدها. وقد أورد أسماء عدد كبير من الفاعلين لم يرد ذكرهم في المصادر التاريخية وذلك بالتّعويل على الدفاتر الأرشيفية.

³- سنذكر هذه الكتابات تباعا في ثنايا البحث.

⁴- ذكره: ابن يوسف (الصغير)، المشرع الملكي في سلطنة أولاد عليّ تركي، تقديم وتحقيق د. أحمد الطّوبلي، المطبعة العصرية، تونس، ط1، 1998، ج1، ص 306-309.

⁵- الوزير السراج (أبو عبد الله محمد بن محمد الأندلسي)، الحلل السّندسية في الأخبار التّونسية، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984، ج3، ص 133.

انظر بحثنا: السّلامي (صدق)، "مأسسة جامع الزيتونة ونظام التّدرّس قبل إصلاحات القرن التاسع عشر"، كراسات فريقيا (المعهد العالي للعلوم الإنسانية بجنّدوبة)، العدد 2، 2022، صص 121-146.

⁶- ابن يوسف، المشرع...، ج1، ص 83 [استفتاء أهل الشّرعية] ثم: ص 84-92. "مثّل ضربه القاضي شعيب" وهو مثال يمكن أن ندرجه في باب نصائح الملوك.

⁷- وهو ما نقرؤه في المصادر التاريخية. انظر أيضا:

مدرّسين واعتنى بتربيته وأحضر لتعليمه من العلماء أولاً الشيخ محمد التّونسيّ فتهدّب به، ثمّ الشيخ محمد الخضراوي للإقراء والمجالسة، يبدو هذا الخبر في ظاهره عادياً العمّ يعدّ ابن أخيه لولاية العهد فيحضر له المدرّسين والمعلّمين ويسهر على تربيته وتكوينه، ولكن بالنّظر في نصّ "المشرع الملكي" نتبيّن تفاصيل مهمّة، فمحمّد التّونسيّ شيخ علي باشا الأوّل اتّصف بسمات لم تعرف عند غيره، حتّى "قيل في حقّ هذا الرّجل أنّه فيلسوف زمانه، وحكيم وقته فائزاً بالعلم على أقرانه (...)"¹، فسعى أصحاب حسين باي يتّهونه "ومن هذا جليس السّوء ردّ بالك، السّاعي في تعطيل سلطانك"²، فعمد إلى نفي الشيخ التّونسيّ لأنّه يُذكي جذوة تلميذه وعوّضه بالشيخ محمد الخضراوي لتتمّعه بمواصفات حدّدها الباي مسبقاً "قال الباي حسين لبعض خواص خواصّه: هل تعلم في مدينة تونس عالماً فاضلاً جامعاً للمعقول والمنقول، مشغولاً بعلمه، شرّها للمأكول والمشروب؟"³، إلّا أنّ الأخبار الّتي نقلها الصغير بن يوسف تؤكّد دون أدنى ريب وعي الشيخ الخضراوي بانخراط الأوضاع وتقلّب الأحوال وتدخل الأجانب في نظام الحكم عند الباي حسين⁴، أعلنت نصوص التّاريخ عن هذا الخطر المحدق الّذي سكتت عنه نصوص الفقه لسبب أو لآخر⁵.

وفي المقابل أمر علي باشا بسجن يوسف برتقيز وقتله في صفر عام 1148هـ/1735م، وقتل القاضي عليّ شعيب في ذات السّنة، فمع الفتنة الباشيّة كان مألّ الحاشية المقرّبة من الباي حسين أحد أمرين فإنّما التّنكيل سجناً أو نفيّاً أو قتلاً وإمّا الاحتواء وإعلان الولاء.

وأحاط علي باشا نفسه بالخاصّة من رجال القلم، وقرّظ أغلبهم شرحه "للتسهيل"، وهو كتاب في النّحو، ضُمّت التّقاريف في كتاب العياضي الباجي "مفاتيح النصر في التعريف بعلماء"⁶، وحرّر مقدّمة الكتاب الشيخ محمد الخضراوي ومن جملة المقرّطين محمّد سعادة المنستيريّ الّذي أفنى جهده في سابق الأيّام بقمع ذي الميّن بنشر فضائل الملك حسين، وهو مثال لأحد الفاعلين الّذين احتواهم علي باشا واستطاع تحويل وجهة قلمه من دعاية للحسينيّين إلى تمجيد الباشا الّذي اشتهر "باعتناء زائد في جمع الكتب، وأخرى في علم الأدب واللّغة، وله شغف وميل إلى كتب القاموس وما يجيء من العلوم النّفوس"⁷، فالظّاهر أنّ العمّ وابن أخيه يوجّهان جهودهما وجهة تخدم العلم وأهله، كلاهما يبني المدارس ويشجّع خاصّته من العلماء، فهما يجسّدان عنفا رمزياً يسير قياد المؤسّسات التّعليمية، ومن أبرز الفاعلين في مجلس حسين بن عليّ شخصيّات مثّلت سلطة في حدّ ذاتها هي سلطة المعرفي والقلم، وأرباب التّصوّف، فالقاضي عليّ شعيب المالكيّ أحد المقرّبين من حسين بن عليّ في مجلسه⁸.

¹- ابن يوسف، المشرع...، ج 1، ص 52.

²- م، س، ج 1، ص 53 (كذا ورد الشاهد). ملاحظة: تغلب العاميّة على نصّ المشرع الملكي، ونورد الشّواهد كما هي في الأصل.

³- م، س، ج 1، ص 54.

⁴- م، س، ج 1، ص 56.

⁵- م، س، ج 1، ص 56. (كذا ورد الشّاهد في الأصل).

⁶- لهذا العمل تحقيقان:

شيخة (جمعة)، تحقيق مفاتيح النّصر في التّعريف بعلماء العصر للعياضي الباجي، شهادة الكفاءة في البحث، كليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة 19 أبريل، تونس، 1971 تحت عدد 1776.

الهيئة (محمد الحبيب)، "مفاتيح النّصر في التّعريف بعلماء العصر"، النّشرة العلميّة للكليّة الرّيتونيّة، العدد 4، السّنة 4، تونس، 1976-1977م.
⁷- ابن يوسف، المشرع، ج 1، ص 56. يذكر صاحب المشرع مكتبة عليّ باشا وتفنّنه في استجلاب الكتب وولعه بفنون التّذهيب والتّفويض. غير أنّ هذه المكتبة نهبت وبذّدت مع مقتله.

⁸- م، س، ج 1، ص 66-85-92. وابن يوسف (الصغير)، المشرع الملكي في سلطنة أولاد عليّ تركي، تقديم وتحقيق أحمد الطّوبلي، المطبعة العصريّة، تونس، 2008، ج 2، ص 194.

وصاحب مشورة خسره البايع أثناء الفتنة الباشية¹، وكان محلّ سرّ البايع وموضع ثقته، فيرسله لاستقصاء أخبار العدو وهو في محلّته بالقيروان²، ويضرب القاضي شعيب الأمثال ليعظ حسين بن عليّ وينصحه لمحاربة ابن أخيه "فقال البايع حسين للبايع عليّ شعيب: قد فهمت ضرب أمثالك، وإني نصنع هذا السلطان بهذا القايم ونرسل أنا أحدا ممن نثق به ونعلمه شجاعا (...)"³.

أمّا الشّيخ المتصوّف عاشور العياط الذي نطالع مناقبه في نصّ المشرع المملكيّ، فهو يُسامر البايع حسين فينصحه ويطلب منه البايع أن يساعده على سداد أجور العسكر بتحويل العقاقير إلى سلطانيّ من الفضّة، ومهما كانت صحّة الحكاية وإغراقها في العجيب وانبنائها على الأسطوريّ المفارق، فإنّ الشّيخ عاشور العياط ينصح ويعظ، ويتنبأ بقطع رأس البايع، إنّ التعلّق بأصحاب الجذب والكرامات والانخراط في تجربتهم وسلوكهم يعلن عن تجذّر الحضور الطّرقّي وانصهاره مع سلطة المخزن، فالمتصوّف يمدّ البايع بسلطة روحية ومعنوية والبايع بدوره يحتضن الشّيخ في مجلسه ولا يستغني عنه، وخلصه الأمر حول منزلة المتصوّفة أحياء وأمواتا أنّ تموقعهم يكمن في تلك الإرادة الكامنة لتبنيّ عقلية تجعل للأولياء هذه المركزيّة في الأذهان، ليمثّلوا سلطة معرفيّة رمزيّة. ما كانت لتتأتى دون إرادة الطّاعة التي تشمل مصلحة خارجيّة أو داخلية في الطّاعة حسب عبارة ماكس فيبر⁴.

ومثّل يوسف برتقيز الحنفيّ وأحمد برناز الحنفيّ ومحمّد سعادة المالكيّ وحسين خوجة والوزير السراج عددا من رجال القلم المحيطين بالبايع حسين بن عليّ ممن خلّفوا مؤلّفات في عهده، منها ما نطق لسان القلم بصله ولاء مع البايع، فما هي الوظائف التي اضطلعوا بها؟ وكيف ساهم كلّ من موقعه في دعم سلطة البايع؟ ما هي دلالات الجمع بين المفاتيح على اختلاف مذاهمهم؟ كيف تمّ توظيف الخطاب الدينيّ لدعم الشّأن السياسيّ؟

2- يوسف برتقيز والتأليف الموسوعيّ في الفقه الحنفيّ: مفتي صاحب كرسيّ باردو:

من نافل القول التذكير بنبذة من سيرته، فيوسف برتقيز⁵ المعروف بالإمام الزغوانيّ الفالاجيّ (1092هـ - 1148هـ / 1681م - 1735م)⁶، كان مقرّبا من حسين بن عليّ ولازمه في قصره وقرأ عليه الحديث، وحجّ عنه، فقد أوكلت للشّيخ وظيفة مهمّة تتصلّ بتربية أبناء البايع، وتنقل المصادر مناظرات وحوارات ومجادلات بين الإمام وشيوخ في القصر، غير أنّ الغلبة تكون لصالح الإمام الذي يفهم الخصوم⁷، وليس يعيننا محتوى تلك المجادلات والتّقاشات في حدّ ذاتها إنّما يعيننا ما سنّته سلطة المخزن من سنن ثقافيّة، فحسين باي بات قدوة أخلافه في استمالة الحاشية المقربة من العلماء، يورد منصف التائب القاسم المشترك بين الشّيخ الإمام برتقيز مع داود النّابليّ والقاضي شعيب الباجي في "عدم ارتباطهم بمركز القوى الذي كان يمثله علماء العاصمة بحكم أصولهم الآفاقيّة"⁸.

¹ - السعداوي (محمد إبراهيم)، "القيروان قاعدة الصفّ الحسينيّ من خريف عام 1735م إلى نهاية سنة 1736م"، التّنوير (مجلة علميّة محكمة يصدرها المعهد العالي لأصول الدّين جامعة الرّيتونة- تونس)، العدد 12، السنة 1431 هـ/ 2009-2010م، صص 291-345.

² - ابن يوسف، المشرع، ج 1، ص 66 و 67.

³ - م، س، ص 92.

⁴ - M. Weber, Economie et société, Trad. J. Freund et autres, Paris, Plon, 1971, p 219.

⁵ - وهي تحوير صوتي لأصول تعود إلى البرتغال.

⁶ - انظر ما ذكره ابن يوسف، المشرع...، ج 1، ص 293-306.

⁷ - انظر نماذج منها في: ابن يوسف، المشرع...، ج 1، ص 293-306. (متّصلة بالإمام يوسف برتقيز).

⁸ - التائب، بلاط باردو...، ص 40.

وصلنا مخطوطان من تحبير الإمام يوسف برتقيز وهما أرجوزة ومؤلف ضخمة، ونظرا لصلة برتقيز بالباي حسين بن عليّ نشير إليهما، أولهما أرجوزة "هداية الصّبيان"¹ تعرّف قواعد الإسلام وفق المذهب الحنفيّ قسّمت إلى كتابين: الطّهاره والصّلاة إضافة إلى المقدّمة حول الإيمان وقسّم كلّ كتاب إلى مباحث فرعيّة. وهذه الأرجوزة تعليميّة، تحاول تبسيط القواعد الفقهيّة وتسهّل حفظها على الولدان، ومن المعلوم أنّ الشّيخ برتقيز كان مؤدّباً لأبناء الباي، ولئن لم يقم الناظم بتحرير شرح للأرجوزة أو إملائه، فإنّ أحد أحفاده قد تولّى هذه المهمّة وهو محمود بن أحمد بن يوسف برتقيز الزغواني²، واعتمد الحفيد الشّارح على ما ورد في عمل آخر لجده وهو "المنن" إذ أشار إليه مرارا في ثنايا شرحه.

و"المنن على مختصر القدوري أبي الحسن"³ مصدر هامّ للمؤلف وهو شرح لمختصر القدوري المعدود من مجتهد الطّبقه الخامسة، ويبدو أنّ معاصريه قد أولوا هذا الكتاب أهميّة كبرى لكونه معدودا من النّصوص الأوائل في الفقه الحنفيّ بتونس⁴، صرّح برتقيز بمصادر عمله الحنفيّة⁵ في التّصدير⁶، وأبان عن تعلقّه بهذه المصنّفات وكلفّ بمعانيها ومتونها فهي توصل إلى برّ الأمان وهي الرّجاء والسّاحل والنّور والهداية والبداية، لقد بدا هذا النّصّ الفقهيّ جامعا بين شواهد لمقتطعات نصيّة كثيرة يعود أغلبها إلى أمّهات النّصوص الحنفيّة من المتأخّرين مثل المبسوط للسرخسيّ والبداية للكاساني والهداية للمرغيباني، والكتب المعروفة بالمتون الأربعة وهي الوقاية مختصر الهداية لتاج الشريعة والمختار وشرحه الاختيار للموصلي ومجمع البحرين لابن السّاعاتي وكنز الدّقائق أو الكنز للنّسفي، كما اعتمد أشهر الشّروح الحنفيّة خاصة شروح الكنز مثل تبين الحقائق للزّليعي والبحر الرّائق لابن نجيم، وضمّ المنن مختارات من الفتاوى الخانيّة لقاضي خان والفتاوى الهنديّة، والفتاوى البرازيّة لابن البرّاز والفتاوى الخيريّة لخير الدّين الرّملي، دون أن ننسى كتب المتأخّرين: جامع الفصول وذُرر الحُكّام ومُلْتقى الأبحر وشرحه مجمع الأهمر.

إنّها جميعها مصنّفات في الفقه الحنفيّ دون غيره، وأغلبها من النّصوص التي تعلّمها الإمام بين تونس ومصر وبلاد الحرمين⁷، فهل من صلة بين الاكتفاء بالمذهب الحنفيّ وغاية سياسيّة تتمثّل في طلب حسين بن عليّ تأليف كتاب جامع فوقرّ للشّيخ عددا من الكتب الحنفيّة في مكتبته؟ وهل أنّ طلب سلطة المخزن تأليف كتاب في الفقه الحنفيّ جعل يوسف برتقيز يُقضي مصنّفات المذاهب وخاصّة المالكيّة؟ نقل الصغير بن يوسف نصّا طريفا يصف طريقة الشّيخ الإمام في التّصنيف، فقد طلب الإمام من نجّار "أن تصنع لي مثل هذا المثال، وكان قد صوّره من الشّمع حتّى أتمّه على هيئة الميدة المدوّرة، وفي أسفلها مركز تدور عليه تلك الميدة، وقدر دورها يرفع من الكتب المنشورة ما يقرب من عشر أو أكثر من الكتب مدوّرة مع دور المائدة، وجعل لهذه المائدة من فوق قبة بهيئة عجيبه، كاملة العجب غريبة، ووصل الفوقاني بالأسفل بأذرعة عيدان نازلين من فوق إلى طرف المائدة، وبينهم وبين طرف المائدة فروج كالأبواب في شكل غريب وترتيب عجيب، والكتب منشورة عليها وهي بين يدي الحاج يوسف، فإذا احتاج إلى شرح مسألة وهي في بعض تلك الكتب المنشورة، دورها بيده حتّى يأتيه ذلك الكتاب من غير رفع ولا مشقّة في تفتيش

¹- مخط د.ك. و بتونس 924 ضمن مجموع بدءاً من ورقة 15 ب إلى 26 أ، وأوراقها مختلفة عن بقية أوراق المخطوط.

²- مخط د.ك. و بتونس 941 وتضمّ إثر الشّرح منظومة في قواعد الفقه على المذهب الحنفيّ لأحمد المعروف بالهلول. ولم يرد فيها تاريخ النّسخ.

³- مخط د.ك. و بتونس في أربعة أسفار 14725-14726-14727-14728 ورقم 16652 ورقم 5161.

⁴- راجع مقدمة مخطوط المنن على مختصر القدوري أبي الحسن، وما ذكره ابن يوسف، المشرع...، ج 1، ص 297.

⁵- برتقيز، المنن...، مخط د.ك. و بتونس 14725، و 1 ب.

⁶- التّصدير: بداية الكتاب إلى حدّ الصّلاة على النبيّ (Préfixation). بنين (أحمد شوقي) والطّوي (مصطفى)، مصطلحات الكتاب العربيّ المخطوط (معجم كوديكولوجي)، الخزنة الحسنيّة بالرباط، ط 5 مزودة ومنقّحة، 1440 هـ/2020م، ص 103.

⁷- يرم الثاني (محمد)، شرح الشّيخ يرم الثّاني على نظمه في المفتين الحنفيّة بتونس المحميّة، تحقيق محمّد الزّاهي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999، صص 83-84.

الكتب وما فيها¹، ولعلّ نصّ الصغير بن يوسف فسّر ما لاح لنا في ثنايا نصّ المنن من تقطّعات في الجمل وبتر لعناصرها، هل يعود ذلك إلى أنّ نصّ المنن بخطّ برتقيز كان مسوّد² لم تتح له الفتنة الباشيّة الوقت لتبويضه؟ فقد أشار الصغير بن يوسف أنّ يوسف برتقيز أكمل المنن في أربعة مجلّدات، وقد رأى مسوّد الكتاب، فما كاد يفرغ منه حتّى اندلعت الفتنة الباشيّة فسجن وقتل 1735 م، والطريف أنّ تلاميذ الإمام المفتي حين استعادوا عرش أبيهم استعادوا رمزيًا ذكرى معلّمهم، فقد أمر علي باي بن حسين بن عليّ النسخ بنسخ المنن على القدوريّ، وهو ما طالعه في حرد متن نسخة من نسخ هذا المخطوط، وطالعنا في الكتاب الباشي أخبارا عن مسامرات في مجلس الباي متقدّم الذّكر تؤثت بقراءة نصوص من المنن، كما يذكر أنّ أحد طلبة تونس من الحنفيّة قام بتبويضه بعد وفاة يوسف برتقيز.

إنّ النصّ الذي يقدّمه الصغير بن يوسف مهمّ من جهات متعدّدة، فهو من ناحية يُفصح دون مُواربة عن صلة بين التّأليف وطلب رسميّ من صاحب المخزن، وهذا التحالف وقرّ المناخ الملائم للعمل وظروفه وأدواته ومراجعته وتنظيمها بطريقة تسهّل الأخذ منها، ويفيدنا النصّ بطريقة غير مباشر حول حاجة السّلطة إلى كتاب مرجعيّ في المذهب الرسميّ للبايات يسدّ ثلّمة، فالمنن على القدوريّ يعدّ أوّل مصنّف موسوعيّ حنفيّ بتونس.

وإذا كان يوسف برتقيز صوت السّلطة الرسميّ والإمام والمفتي، فإنّ أحمد برناز الحنفيّ يمثّل القلم الجامع بين المذهبيين المالكيّ والحنفيّ ووسيطا بين الكوروغليّة والأتراك والمحليّين، في حين يمثّل محمد سعادة المنستيريّ المالكيّ مذهبا، لسان قلم الأفاقين وصوتهم في صدام مع بلديّة تونس.

3- أحمد برناز الحنفيّ ومحمد سعادة المالكيّ: تبريرتنظيمات الباي ومواقفه:

خلف علمان بارزان من رجال القلم في عهد حسين بن عليّ مؤلّفين مهمّين يندرجان في سياق جدل وصراع بين الفاعلين ويكشفان عن خيارات يحركها دافع سياسيّ: وهما محمد سعادة المنستيريّ المالكيّ وأحمد بن مصطفى برناز الحنفيّ، ويمثّل أحمد برناز صوت الكوروغليّة وناطقا بلسان الباي أمام التّمييز الاثنيّ والمذهبيّ، وهو من أصل تركيّ (1074هـ/ 1664م - 1118هـ/ 1726م)³، وقد جدّه الأعلى مع الجيش الانكشاريّ عند حلول سنان باشا، وخلف أحمد برناز من جملة مخلفاته مخطوطا موسوما بـ "إعلام الأعيان بتخفيفات الشّرع عن العبيد والصّبيان"⁴ وهو كتاب فقهيّ يدعو في أسطره الأولى إلى نقض واقع التّعليم، فقد عبّن الصّبيان حقوقهم الشّرعية حين "تجاوز المعلّمون الحدّ في ضرب الصّبيان"⁵، إنّ مقاصد التّأليف وإن كانت تنطلق من الفقه لبيان أوجه التّربية وأحكامها الشّرعية فإنّ ذلك لا ينفي تقاطعه مع الجانب الاجتماعيّ والسياسيّ ممّا يقرأ بين السّطور، وما يهّمنا في هذا السّياق أنّ المخطوط ألف سنة 1131 هـ/ 1719م، وهي سنة نسخ النسخ الثّلاث المحفوظة بدار الكتب الوطنيّة بتونس دون النسخة الأمّ التي لا نعرف مصيرها، فهل لتأليف إعلام الأعيان صلة بالتنظيمات التي أقرّها حسين بن عليّ باي؟

¹ - المشرع... م، س، ج 1، ص 297-298.

² - المسوّد: الشّكل الأوّل للكتاب المليء بالمحو والتّشطيب والاضطراب وما إلى ذلك (Brouillon)، مصطلحات الكتاب العربيّ المخطوط... م، س، ص 429.

المبويضة هي نسخة المؤلّف التي صحّحها ونقّحها وهذّبها وارتماها وأذاعها في النّاس (L'autographe ou l'original) م، س، ص 400.

³ - انظر ترجمته في: خوجة (حسين)، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، تحقيق الطّاهر المعموري، الدّار العربيّة للكتاب، تونس، 1975، ص 140-143.

⁴ - دار الكتب الوطنيّة بتونس في ثلاث نسخ، 6242 - 4569 - 3885.

⁵ - برناز (أحمد)، إعلام الأعيان بتخفيفات الشّرع عن العبيد والصّبيان، مخطّ د.ك. و 6242، ورقة 1ب.

أما كتاب برناز الثاني "الشَّهب المخرقة لمن ادعى الاجتهاد لولا انقطاعه من أهل المخرقة" فهو يفتتح بالرّد على الخصم الذي ادعى انقطاع الاجتهاد في العصر وتعمد برناز ألا يفصح عن اسمه¹، والكتاب يقدم تراجم لعلماء العصر وهي سيّرتُ تفصح عن علائق بين المالكيّة والحنفيّة، ويبيّن خصائص التّعليم وطرقه وأساليبه وعلومه، فهو يقدم نماذج حيّة لوضعيّة العصر الثّقافيّة ومستوى أهل العلم والتّعليم وأرائهم، لتكشف عن علاقة السّلطة بالتّربية فهي التي تراقب نشاطه وتدعمه وتحتويه وتوظّفه توظيفاً غائباً.

إنّ قصديّة الكتابة تُفصح عن مآربها في "الشَّهب المخرقة" دون مُواربة أو تخفّف، لتجسّد مثالا حيّا لقلم جنده أصحاب السّلطة لخدمتهم وتدعيم نفوذهم واختياراتهم، فالخصم الحنفيّ رفض التّدريس مع السّادات المالكيّة ونعتهم بـ"السّواسي"، فأحمد برناز حين ردّ على خصمه ما كان له أن يكون إلا بعد إذن حسين باي "وصلبه (الخصم) المعنويّ هو إلهام الله تعالى بتأليف هذا الكتاب، ودلالة ذلك أن سخر الله أمير بيعتنا وسلطان مدينتنا المولى حسين بن علي بأن أذن في تأليف هذا الكتاب صريحاً ورآه شيئاً مليحاً"²، فلولا هذه الإرادة السّياسيّة لما حرّر أحمد برناز كتاب الشَّهب، والظاهر أنّ السّلطة السّياسيّة وجدت في المالكيّة مسانداً لهم خاصّة أنّ أغلب الأهالي يتبعون المذهب المالكيّ، وعلاوة على ذلك استثمر الباياء العلماء المالكيّة في المناطق الدّاخلية لدعمهم، فهذا إبراهيم الجمني (ت1134 هـ / 1721 م) عيّنه مراد باي بن محمد للتّدريس بحومة السّوق جربة مناهضة للمذهب الإباضيّ، وهناك بنى له الباي مدرسة لتحقيق تلك الغاية المذهبيّة السّياسيّة، وهو أمر يسهم في توحيد أفراد المجموعة البشريّة ذهنيّاً ويقرب بين عناصرها، وواصل حسين بن علي باي الاعتناء بها، وله محبّة واعتقاد فيه³، فهذا العَلَم مثال لفقير مالكيّ بعيد عن حاضرة البلاد تولّته السّلطة السّياسيّة بعنايتها وضمنت من خلاله نفوذها في منطقة نائية من الإيالة لمناهضة مذهب الإباضيّة⁴.

إنّ الشَّهب يشير إلى نزعة عند عدد من رجال الحنفيّة غايتها الأساسيّة إظهار تفوّقهم على المالكيّة، وهي نزعة قد لا تعبّر ضرورة عن شعور فرديّ إنّما هي تفكير عامّ يسّوس المجموعة، رغم أنّ عدداً لا يُستهان به من أتباع المذهب الحنفيّ انصهروا ثقافيّاً وعرقياً مع العناصر المحليّة⁵، ولا نعتقد أنّ الأمر يتّصل بالانتساب المذهبيّ فحسب، إنّما يشير كذلك إلى اختلاف عرقيّ وشعور بتفوّق العنصر التّركيّ لذا أرادت السّلطة السّياسيّة أن تمتصّ هذا الشّعور بدفع أحمد برناز لتحرير كتاب الشَّهب.

إذا عرّجنا على سيرة محمد سعادة المنستيري (1088 هـ - 1171 هـ / 1677 م - 1757 م) أُلّفيناها ممّن تقلّد وظائف متعدّدة، واشتهر بالتّدريس والأدب، وهو من عائلة أصيلة المنستير أخذ عن شيوخ عصره مثل محمد الغماري وعبد القادر الجبالي ومحمد زيتونة وسعيد الشّريف، رحل في طلب العلم إلى الحجاز ومصر واضطرّ إلى الإقامة في اسطنبول مدّة ثمّ عاد إلى تونس

¹ - عبد السلام (أحمد)، المؤرّخون التّونسيّون في القرون 17 و18 و19: رسالة في تاريخ الثّقافة، ترجمة عبد الرزّاق الحليوي وأحمد عبد السلام، المجمع التّونسيّ للعلوم والآداب والفنون بيت الحكمة، قرطاج، 1993. رأى أنّ الخصم المذكور هو حسين أفندي الحنفيّ.

² - برناز (أحمد)، الشَّهب المخرقة لمن ادعى الاجتهاد لولا انقطاعه من أهل المخرقة، تحقيق وتقديم الطاهر المعموريّ، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ط 1، 1990، ص 364.

³ - خوجة، ذيل...، ص 130-132: السّراج، الحلل...، ج 3، ص 301-302.

⁴ - المريعي (محمد)، إباضيّة جزيرة جربة خلال العصر الحديث، كليّة الآداب والفنون والإنسانيّات بمنوبة ودار الجنوب للنّشر، تونس، 2005، ص 303 ووصص 317-325 (الفصل الثّاني: دخول المالكيّة إلى جربة وتطوّراتها).

⁵ - يعتبر أحمد برناز من أبناء التّرك، وكذلك البيارمة الذين عدّوا أشرافاً من جهة الأمّ. وتسمّى هذه الطائفة النّاتجة عن تزواج عرقيّ بـ"كوروغلي". انظر: بريم الثّاني (محمد)، التّعريف بنسب الأسرة البيريميّة، تقديم وتحقيق لضو بسيّسة، نقوش عربية، تونس، 2010.

وقدّده البايع حسين وظائف متعدّدة حرّز أثناءها قرّة العين، وهو سابق للذليل والحلل، إنّ محمد سعادة مثال العالم الذي يتملّق لأصحاب السّلطة، وكان أحد العلماء الذين أرسلهم البايع إلى جبل وسلات¹ لحمل ابن أخيه علي باشا على العدول عن ثورته، ثمّ أصبح أحد المقرّبين من علي باشا، وهو مثال العالم الذي يستغلّ وظيفته لتحقيق مآرب شخصيّة.

وكتابه هو "قرّة العين بنشر فضائل الملك حسين وقمع ذي المين"² أو "قرّة العين بنشر فضائل الملك حسين الممجد ونجله الأمير ابن الأمير البايع سيدي محمّد"³، مؤلّف في مدح الملك حسين بن علي "وقد رأيت أن أصنّف رسالة أشير فيها إلى بيان سيرته في خلال بعض ما يحتاج إليه كلّ ملك من مملكته من العدل الذي به قوام دولته وإصلاح أمر رعيّته وذكر بعض الأمور الشرعيّة وما يجب في أهله من الشّروط المرعيّة"⁴، ويمكن أن نعدّه كتابا في السّياسة الشرعيّة وتنظيم مؤسّسات الدّولة والبيعة، وهو يحقّق غاية أخرى لا تنفصل عن أبعاد ذاتيّة وأخرى ذات صلة بسياسة البايع حسين بن عليّ في دحر بلديّة الحاضرة تونس، إذ قام محمد سعادة بدمّ منافسه الشّيخ حمودة الرصّاع، فعنوانه القائم على السّجع أوضح دليل على الانخراط في الدّعاية السياسيّة لوليّ نعمته، ممّا يُغنيينا عن تحليل وبيان⁵، والكتاب مثال لمُدح أصحاب السّلطة ذكر فيه مآثر البايع ويتنزّل موضوع المخطوط حول السّياسة الشرعيّة وأخلاق الحاكم وصفاته، يحاول فيه سعادة أن يبرز تنحية عليّ باشا عن ولاية العهد وتنصيب الأمير محمّد رشيد باي وعقد البيعة له في تشريفات عسكريّة حضرها أكابر الدّولة وكبار العلماء "وتذليل حسن في ولاية نجله الأسعد وانعقاد بيعته كافية من أهل الحلّ والعقد الأمير ابن الأمير البايع سيدي محمّد"⁶، وهو يفرق إثر ذلك في لغة تمجيدية محلّلة بيانا وبديعا "لا يزال طالعهما النير على أفق الغرب لامعا ونور جمالهما للأبصار ساطعا، وما يتصل بذلك من أمداح رائقة وفراسة صادقة وخاتمة تشتمل على حكايات فائقة، وقد كان قدما يختلج في الصّدر تأليف كتاب في سيرته عبر النّشر، يبقى له به على ممرّ الأيّام أطيب الذّكر محيطا بمعظم أحواله وتاريخ مملكته التّونسيّة إحاطة الهالة بالقمر، محلّى بما قيل فيه من الأمداح نثرا وشعرا كتخلية الحسنة بالخمر والجيد النّاعم باللائئ والدّرر، يطلع به على قيم الفضلاء في عصره ويخصّ بتخصيص رعايته أدباء عصره ويدهم به النّاطقين وغيرهم الأخرس ويميّزهم بالتّقديم في ولاياته وضدّهم يعكس، إذ هو لسانه على التّحقيق في محاضر التّوازل وحيث يطلب معرفة أقدار التّوازل ومن يستطيع إذا لُزّ في قرن صوله البوازل"⁷، وهو أيضا دالّ على دور الصّحاح وتأثيرهم في التّفوس المؤمّنة المتديّنة، إذ ذكر المؤلّف تراجم صلحاء عاشوا في صدر الإسلام إلا أنّ النّاس ظلّوا يستحضرون أسماءهم تبرّكا بهم في أوقات الشدّة.

¹- ابن يوسف، المشرع...، فصل: ذكر بعوث العلماء من تونس مرّة أخرى إلى أهل جبل وسلات، ج 1، صص 107-113.

²- عنوان المخطوط د.ك. و بتونس رقم 7129 أمته أواخر شهر محرّم سنة 1136 هـ/ أكتوبر 1723 م.

³- عنوان المخطوط د.ك. و بتونس رقم 21730، لم يرد في حرد المتن تاريخ الفراغ منه وحسب ما ورد من إشارات تاريخيّة ببناء المدرسة والجامع والتّربة الملاصقة لهما بالصّبّاغين يعود تمام الكتاب في 1139 هـ/ 1727 م.

⁴- سعادة، قرّة العين...، مخط د.ك. و بتونس، رقم 21730، ورقة 6 وجه.

⁵- وهي مقاطع حذفت في النّسخة 21730 من قرّة العين. راجع:

اللّواتي (محمد)، "معطيات جديدة حول مخطوط قرّة العين لمحمد سعادة"، ضمن: التراث المكتوب، جمع د. فتحي جزّاي، المعهد الوطني للتراث، تونس، 2017.

ولا نوافق الرّميل أنّ النّسخة 7129 مسوّدة والثّانية 21730 مبيّضة. فالترّويق والتّذهيب في المخطوط رقم 7129 لا يمكن أن يكون تسويدا، ونرجّح أنّ النّسخة وقع التصرّف فيها في فترات بعديّة لأغراض ما. وهذا ما يفسّر السّطّب في المخطوط الأوّل وإضافات أخرى في المخطوط الثّاني. ونفضّل في هذا الصّدّد استخدام مصطلح الإبرازة، وهي تعني الرّيادة والتّنقيح. انظر: إبرازة في: بنين والطّوي، مصطلحات الكتاب العربيّ المخطوط...، م، ص 14.

⁶- سعادة، قرّة العين...، مخط د.ك. و رقم 21730، ورقة 6 وجه.

⁷- قرّة العين، د.ك. و 21730، ورقة 6 وجه. والشّاهد تضمين لبّيت جرير [البسيط]:

يمثل محمد سعادة المنستيري العنصر المحلي الأفقي، وهو ناطق عن سياسة الباي حسين في دحر بلدية الحاضرة وقمعهم بعد أن أطلق العنان أمام قلم سعادة ليصب جام غضبه وحقده على الشيخ حمودة الرصاع، فأغرقه قدحا وذمًا وثلبا وتشهيراً¹ في لهجة حادة، ذكرا أثناء كل ذلك أوجها من الحياة الثقافية والعلمية في عصره، ذاك الخطاب الذي يقوم على التفنن في القول وإغراق النصّ بمحسنات بديعية وصور بيانية تدعّمها نصوص شعرية في ذكر تقوى الباي ومواظبته على العبادات وأخلاقه ورعاية الرعية وبناء المدارس وتقريب العلماء والصلحاء، إضافة إلى تشييد البناءات للمصلحة العامة وتهديم الحانات، ومنح محاصيل الجزية لشيوخ الجامع الأعظم وغنائم القرصنة للصلحاء المنقطعين للعبادة²، وما يعيننا في هذا المقام أنّ محمد سعادة يقرب بين صفة العدل المطلوبة في الملوك وإحياء الشريعة وهو من سمات الملك، ويعدّ من مآثر الباي حسين بن عليّ بناء المدارس والجوامع وإحياء العلم بجامع الزيتونة، "الحمد لله حامي نبيه ﷺ ومهدداً شريعته بملوك اصطفاهم لذلك من خيار بريته، أحمد بقويم عدلهم نيران الهوى وشكيمته وأحمد منهم من قمع عنفوان الباطل بشريف سيرته"³.

ساق محمد سعادة شواهد ونُقولا لإبطال ولاية عهد علي باشا، وهو نسج يتناغم بين الغايات السياسية وصوت المفتي⁴، وما رصّه من نُقول تمثل آيات قرآنية وأحاديث نبوية وشواهد لأعلام الفقهاء والأصوليين من المذهب المالكي والشافعي تمجيدا لمآثر الباي ودعما لتنظيماته للولايات والقضاء والتدريس والإفتاء والأوقاف، وقد بُني الخطاب على خطة واضحة المعالم، يفتح كل قسم من المخطوط بشواهد قرآنية فشواهد من الحديث النبوي تشفع بآثار متعدّدة تدعّمها آراء الفقهاء ونصوص الشعر، وهو يربط بين كلّ مبحث والحديث عن وليّ نعمته حسين باي والإشادة بأيامه البيضاء، وممّا يمكننا إيرادها في هذا السياق ما خطّه محمد سعادة "وبالجملة فعلى المراقبة في ذلك بُني استعداده فدام بذلك ملكه وصلحت بلاده، وقلت: [الوافر]

فَهُوَ الَّذِي مِنْ حَلِّ سَاحَةِ عِرِّهِ مُسْتَنْصِرًا مِنْ كَيْدِ مَكْرِ الْمَاكِرِ
يَمْضِي بِنَا مِنْ عَدْلِهِ وَيَقُورُ مِنْ لِمَحَاتِهِ شَرِيفَ عَزِّ بَاهِرِ
لِمَ لَا وَقَدْ قَهَرَ الطُّغَاةَ وَقَادَهُمْ بِسَدِيدِ رَأْيٍ لَا بِسَلِّ بَوَاتِرِ
كَمْ أَبْصَرْتَ عَيْنَاكَ مِنْ طُغْيَانِهِمْ مَا كُنْتَ تَعْتَدُ فِي زَمَانِ غَابِرِ
خَفَضَ الْجَنَاحَ إِلَى الْوَرَى فَأَقَالَهُ خَفَضَ الْمُعِيشَةَ مَعَ جَزَاءِ وَافِرِ

وَأَيْنَ اللَّبُونِ إِذَا مَا لُرَّ فِي قَرْنٍ لَمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ الْبَزْلِ الْقَنَادِيسِ

¹- Bargaoui (S), «Débats identitaires et logiques territoriales: L'administration de la justice malikite à Tunis à l'époque moderne», *Studia Islamica*, no. 97, 2003, pp 121-153.

²- راجع هذه الأخبار في: د. الهيلة (محمد الحبيب)، "المادة التاريخية من كتاب قرّة العين لمحمد سعادة"، *المجلة التاريخية المغربية*، السنة الثامنة، العدد 24، 2003، نوفمبر 1981، ص 379-406.

³- قرّة العين...، 21730، ورقة 2 ظهر.

⁴- Lewis, Bernard, *Le langage politique de l'islam*, Paris, Gallimard, 1988.

Repp, R.C, *The Mufti of Istanbul ; A study in the development of ottoman learned hierarchy*, Oxford, U .K, Ithaca press, 1986.

انظر التحليل الذي يقدم حول مؤلفات السياسة الشرعية وآداب نصاب الملوك في: عبد اللطيف (كمال)، في تشريح أصول الاستبداد: قراءة في نظام الآداب السلطانية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1999.

كَيْنٍ وَحُسْنِ سَرِيرَةٍ وَبَوَادِرِ

وَإِذَا تَرَاهُ مَلَكًا فِي زِيٍّ مَسْنُونٍ

فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا بِنَصِيحَةِ جَمَاهِرٍ¹

فَأَشَدُّ يَدَيْكَ بِهِ فَذَلِكَ الْمُتَبَتَّغَى

وبذلك يتعانق صوت رجال القلم مع إيقاع بلاغيّ وشعريّ له غايات مدحيّة واضحة المعالم والغايات، وتتناغم مع قرارات صاحب السّلطة السياسيّة الذي يحتاج دعامة أساسها دينيّ.

4- في توظيف الخطاب البلاغيّ لإشهار القدوة السياسيّة:

تمثّل كتابات الوزير السّراج وحسين خوجة ومحمّد سعادة، أصوات المدح واللّغة الشّعريّة الفيّاضة. ونسجّل في هذا السّياق تنوع أصول خوجة والسّراج فأولهما في الذّكر من أصول عثمانية حنفيّ المذهب، وأصول الثّاني أندلسيّة مالكيّ المذهب وكلاهما مستقرّان في تونس. سجّل نصّ الوزير السّراج (1069-1149 هـ/ 1659-1735 م) إمعاناً في المحسّنات البديعيّة وإغراقاً في الصّور البيانيّة مثله في ذلك مثل نصّ قرّة العين لمحمّد سعادة فضلاً عن نصوص من المدائح نُظمت شعراً. وهي نفس اللّغة والآليات التي تستحضر مع علي باشا حين تولّى الحكم، ونُطالعه في التّقرير المضمّن في "مفتاح النّصر" لتؤكد صلة الخطاب بالسياسيّ. فالخطاب البلاغيّ الذي يتلقّع بغطاء شرعيّ، يغطّي الحقائق وراء لغة أثقلت تزويقاً وتفخيماً. خصّص الجزء الثّالث من "الحلل السّندسيّة في الأخبار التّونسيّة" لذكر أمر حسين بن علي ودولته في حين فُقد الجزء الرّابع وقد أفنى المحقّق محمد الحبيب الهيلة جهداً علّه يعثر عليه في إحدى المكتبات العالميّة دون جدوى. فالظّاهر أنّ عليّ باشا أمر بإعدامه وإتلافه وبالتالي طمس أثره²، وسلّمت نُسخٌ من بقيّة الكتاب لتصلنا.

أمّا حسين خوجة (ت1167هـ/1754م)، فيمكن أن نعدّه من رجال القلم الذين تباروا في ذكر فضائل أولي النّعمة عليهم كما صرّح هو نفسه "فتجاسرت الآن بالقلم وقيدت اللّائق والأهمّ على قدر الطّاقة والاهتمام. وإن لم أوفّ بالقدر والمقام... ولمّا أضافتني يد المقادير إلى خدمة جناب المولى الهمام من شرفني بكتابة إنشاء ديوانه المولى الذي اتّخذته اللّيالي لظلام ظلّهما سراجاً وعلا على غرر الأيّام تاجاً"³. إذ يعدّ "ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان" (حرر في 1137 هـ/ 1725 م) تتمّة للكتاب الأصل "بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان"⁴ المحرّر باللّغة التّركيّة وعزّبه حسين خوجة اعتماداً على مساعدة أحمد برناز، ويختصّ الذّيل بالتاريخ لاستقرار العساكر العثمانيّة، ثم يركز العمل على فضائل الملك حسين بن علي باي ومختلف إنجازاته وذكر تراجم لعلماء عصره، ويختتم الكتاب بتراجم علماء لأقاهم حسين خوجة بمكّة وبالشّام وقد شاهد بركاتهم ومناقبهم، وبذلك زاح حسين خوجة الحنفيّ بين إشهار سيرة أصحاب السّلطة ترجمة وتألّيفاً بدءاً من أرباب السّلاطين من الباب العالي انتهاءً بوليّ نعمته الباي حسين بن عليّ، وقد ندرك من ذلك حركة علميّة قامت على تعدّد اللّغات ورغبة في ترجمة كتاب تاريخيّ مهمّ عن اللّسان التّركيّ ممّا يوفّر مادة لأصحاب اللّسان العربيّ، أفرد حسين خوجة في ذيل البشائر فصلاً لا يخرج عن المدحيّات وهو "فصل في ذكر انفراد الأمير الأعظم والباي الأكرم أبي الخيرات المولى حسين باي بن عليّ دامت معاليه وحسنت أيّامه ولياليه"⁵، فمما يورده في هذا الفصل قوله في لغة بلاغيّة موقّعة بمحسّنات بديعيّة "ولمّا استقرّ على كرسيّ المملكة التّونسيّة وتصرّف في قطر بلاد افريقيّة وسار في النّاس سيرة مرضيّة، فما اطّلع على برٍّ ومعروفٍ إلّا وأخذ في

¹- سعادة، قرّة العين...، 21730، ورقة 5 ظهر. والأبيات لمحمد سعادة قمنا بتحقيقها.

²- راجع ما يذكره: ابن عبد العزيز (حمودة)، الكتاب الباشي: قسم السّيرة، تحقيق محمد ماضور، الدّار التّونسيّة للنّشر، تونس، 1970.

³- خوجة، ذيل...، ص 111.

⁴- مخطّ د.ك. وبتونس 4866 والنسخة فيها نقص. ومخطّ د.ك. وبتونس 41 مبتورة الآخر.

⁵- خوجة، ذيل...، ص 115.

اتّصاله ولا علم بمُنكر إلا وبالغ في دفعه وقطع شوكة أهل البغي والفساد وقمع طائفة الخلاف والعناد، وانقاد له العصاي ورفق بالفقراء والرعيّة وساس البلاد بأحوال مرضيّة واهتمّ بإجراء الشريعة المحمّديّة، وأخَيّ رسوم السنّة السنيّة، وأمنت الطّرقات وكثرت في أيّامه الخيرات، فعمرت الرّباع والرّياض وبنوا القصور بأمنه المستفاض، ما لم يكن في زمن غيره من المتقدّمين ولا على عهد سلاطين بني حفص الأقدمين، ما لا يعدّ ولا يحصى ولا يحدّ ولا يستقصى، ولو تتبّعناه واستقصيناها لاحتاج إلى مجلّدات، ولكن ما لا يدرك كلّ لا يترك قلبه، فلنذكر نبذة ممّا اختصّ به حفظه الله تعالى من خيراتهِ وما أحدثه وجدّده ليكون إن شاء الله في صحائف حسناته مجملا على وجه اختصار، بارك اللهمّ لنا فيه وفي أيّامه وعوّضه جنّات النّعيم وشفاعة النبيّ العظيم ﷺ ومتّعهُ بالنظر إلى وجهه الكريم كما قيل: [الطّويل]

وَمَا بَلَغَتْ كَفُّ امْرِئٍ مُّتَنَاوِلٍ مِّنَ الْمَجْدِ لَا وَالَّذِي نَالَ أَطْوَلُ

وَمَا بَلَغَ الْمُهْدُونَ لِلنَّاسِ مَدْحَهُ وَإِنْ أَطْنَبُوا إِلَّا الَّذِي فِيهِ أَكْمَلُ¹

يجمع حسين خوجة في هذا الشّاهد بين معجم سياسيّ وآخر دينيّ، فكلّ منجز للباي حسين بن عليّ يعاضده دعاء وثواب أخرويّ، ليتحوّل الخطاب إلى توظيف رمزيّ مُثقل بالتصوّر المقترن بالجزاء عند الله ويعلم عن تعلّق بالهمّ الاسكاتولوجيّ، فهذا الباي فاق من سبقه من ملوك بلاد افريقيّة ومنهم الحفصيّون وسلفه من المراديين والعثمانيين، وُظّفت المقابلة لتصوير منجزات الباي وتضخيم أعماله في مبالغة واضحة تستثمر الطّاقات التعبيريّة للغة، فتكتفت الصّور والأفعال في وصل بين السّياسيّ والدّود عن حياض الدّين، وبما أنّ مدينة القيروان تعدّ رمزا في متخيّل أهل البلاد وكامل الغرب ركّز حسين خوجة على تاريخ القيروان عاصمة المسلمين الأولى في الغرب الإسلاميّ وأسبقيتها وفضلها، وقد أوّلاها الباي عناية فاعاد عمرانها بعد ما حلّ بها من خراب في عهد مراد الثالث بوبالة، فيقول "فأولّ حسنة من حسناته التي اهتمّ بها وبنائها مدينة القيروان حتّى جدّد رسومها وأحياها، وهي مدينة مقرّ الأبرار ومناخ الصّحابة الكرام وأول أساس أسسوه رضي الله عنهم عند ظهور الإسلام، واتّخذوه مستقرّاً للغزو والجهاد"²، فالربط بين أيادي الباي البيضاء ومعاني القداسة المرتبطة بالقيروان مكثّفة مكتنزة بالمعاني والرموز، ولذا نُلفي حسين خوجة إثر ذلك عاقدا الصّلة بين الفعل ونية الباي ومقاصده الدّينيّة "وشملها بساعد برّه أحسن الله إليه وباشر أوّلا في بناء سورها بالجدّ والاجتهاد وأخلص فيه النية لربّ العباد وصرف عليه من خاصّة كسبه واهتمّ به اهتماما عظيما، ولم يكن له مشاركا في هذا الثّواب الجليل في كثير الأشياء منها ولا القليل، واختصّ وحده بهذا الثّواب وجعله خالصا لربّ الأرباب وادّخره ليوم لا ينفع مال ولا بنون، ومن غريب الاتّفاق أن أهمته الحكمة الإلهيّة وحركته القدرة الأزليّة بأن كان ابتداءه ومباشرته لبنائه في يوم عرفة كما أنّ هدمه كان في يوم عرفة"³، فالمعجم الدّينيّ طاغ في هذا الشّاهد رغم أنّه يؤرّخ لأحداث تاريخيّة واقتران الحدث في حدّ ذاته التصق بموسم دينيّ وهو يوم عرفة الذي يعدّ أبرز أركان الحجّ.

ويواصل حسين خوجة بنفس المدد البلاغيّ تعداد مآثر وليّ نعمته "ولم يزل أدام الله بقاءه وزاد علاه مداوما على أفعال البرّ والتّقوى في إحياء مساجدها وزوايا أهل البركات والصّالحين على ممرّ الأيّام والسّنين، وفي كلّ عام يصرف من خاصّة ماله جملة عظيمة حسبة لله ربّ العالمين وأحبيّ فيها من المساجد ما ينيف عن الخمسين ويعين لهم ما يقوم بهم من تحصيل زيت وغيره بعد الترميم والإصلاح، وكذلك في تشييد أضرحة الأولياء وزوايا الصّالحين ما لا يدخل تحت العدّ وجدّد فيها رسوما كثيرة"⁴.

¹ - م، س، ص 115. والشعر للخنساء.

² - م، س، صص 115-116.

³ - م، س، ص 116.

⁴ - خوجة، ذيل...، ص 116

فالباي ممّن كثرت مآثره المعماريّة والعمرانيّة إحياء للديّن فبني الجوامع والمدارس والزّوايا والتّرب، وهي مآثر عدّدها برناز وسعادة وخوجة والسّراج فضلا عن إحياء المواسم والاحتفالات، وعموما يقرب حسين خوجة بين مآثر الباي وخصاله وما كانت غايته "انتفاع المسلمين" مراوفا بين التّأثر الموقّع سجعاً وجناساً في صور بلاغيّة مكثّفة، والشّعور الموزون المقفّى.

ونلّف الوزير السّراج يُطّيب في ذكر مآثر هذا الباي وإحسانه في لغة بلاغيّة واضحة أرفقها بقصيدة مدحيّة مطوّلة، وممّا ورد في هذا النّصّ قوله "إذ هو المتطوّل بأيّديه المتفضّل بما غمرتني غواديه، وطالما تفضّل عليّ جائدا بأمواله زائدا نيل نواله، مرتديا أثواب الجلال، مبتدنا بالعطاء قبل السّؤال، وحقّ الذي جعل أيّامه من أسعد أيّام الممالك، وسلك به على سبيل التّوفيق ألطف المسالك، لو استطاعت تمثيل حمده ومدحه، واعتيادي بإفضاله العميم ومنحه لأبرزته في صورة تروق النّواظر، وأفرغته في قالب يسرّ القلوب والخواطر، إذ أنّه أترع مواردٍ ومناهي، وحملني من حقائب الجود ما أثقل كاهلي، وأراح سري بهبات هباته، ووصل أملي من موادّ صلّاته، ونشر عليّ ملابس عوارفه، وأهدى إليّ نفائس لطائفه، ولحظني بعين العناية، ومدّ لي ظلّ الرّعاية، ووصلني من أسباب الصّنائع بما عهدته عندي محفوظ ونشره ضائع (...)"¹، وإنّ التّعاضد بين أهل السّلطة وأهل العلم لم يقتصر على مجرّد المدح والثّناء إنّما تجاوزه إلى تبرير أعمال الحكّام وإسباغ المشروعيّة على أفعالهم، إذ افتتح الوزير السّراج الجزء الثّالث من الحلل بإصدار فتوى تقضي بوجوب طاعة السّلطان العادل، واستمدّ نصوصه من المصادر الأولى للفكر الإسلاميّ مثل مسند أحمد بن حنبل وكتابات البيهقي والغزالي والسّيوطي من المتأخّرين²، فهذا التّعاضد مثال دالّ على سيطرة الدّولة على الديّن من خلال التّجربة التّاريخيّة الإسلاميّة في سيطرة شبه تامّة³.

وأطنب الوزير السّراج في الثّناء على السيّدّة المنويّة ومجاهداتها بمناسبة ذكر إحياء الأمير لأجنّة منوّبة، فيمتزج المعنى السّياسيّ بالمعنى الدّينيّ بمدح هذه الوليّة، يقول عنها: "وقد فاز من جعل الاعتناء بها سهم فهمه والعكوف على عريض أبوابها حزم عزمه والاستعطاف من زاخر مواهبها أمّ همّه"⁴، واستتبع الحديث عن إخراج الدّاي محمد "بعض المحترمين" من الزّاوية العروسيّة ترجمة الشّيخ أحمد بن عروس، وقد نقل السّراج هذه التّرجمة المدحيّة معلنا عن رغبته الدّاتيّة "ولمّا كان هذا الأستاذ بحضرة تونس كناية عن الشّمس ضياء والقمر سناء والقطب لقبله الاستمداد اهتداء، أحببت أن أنشر رداء ترجمته وأقتبس بأنامل التبرّك من جانب طور معرفته، وإن كان مقامه في أوج الأسرار غنيّا عن التّعريف ومستكفيا عن الإشاعة بعلوّ قدره المنيف رجاء أن أدخل في حزب خدامه وأحسب من الواقفين بأعتاب العليّ مقامه"⁵، ثمّ أدان الفعل الشّنيع الذي صدر من محمد داي المتمثل في "تعدّيه على حرم الأستاذ"، مقارنة ضمّنيّا بين أعماله ومآثر أميره حسين باي "والحاصل أنّ تهاون الدّاي به واستخفافه هو الذي أزلق أخفافه، ولو زرع في رياض دولته عدله وإنصافه لاقتطف يد محامده بأنامل المدح من جميل تلك الأزاهر أوصافه، ولكن الآراء مذاهب، والهداية مواهب"⁶، ولا تخرج بقية التّراجم المنقبيّة الكثيرة عن هذا المنطق العامّ الذي يخضع هذه السّير إلى ما شكّله المخيال العامّ من تصوّر للأفعال يتعالى على القدرات العاديّة المتاحة للبشر، إنّ جماع هذه التّصوّرات تنبني على تفكير ضارب في القدم، فالمتصوّف هو ملتقى النّظم والأخلاق والتّصوّرات ممّا يسمح بدراسة الدّهنيّة. فالولع بسير الصّالحاء في العهد الحسينيّ بتونس لم يكن وليد يومه، ورغم انتماء كتاب الخلل إلى الثّقافة الرّسميّة فقد خصّص

¹- السّراج، الحلل...، ج3، ص70.

²- م، س، ج3، ص16-20.

³- كوثراني (وجيه)، السّلطة والمجتمع والعمل السّياسي: من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشّام، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، 1988، ص20.

⁴- السّراج، الحلل، ج3، ص239.

⁵- م، س، ج3، ص75.

⁶- م، س، ج3، ص91.

صفحات بيانية لا تخلو من الإطناب لتمجيد سير الأولياء واضعا حلقة وصل متينة بين الثقافة العالمية والثقافة الشعبية، وهي وليدة وضعية انتصارية للتصوّف حدا بالمريدين إلى حفظ آثار شيوخهم بتدوين مناقبهم ووصلها بسيرة الباي.

هذه التّراجم مثقلة برمزية تربط الذّهن بسير نموذجية لهؤلاء الأعلام تُعشّها الذّاكرة الجماعية مشافهة وتدوينا، ويكتسب الولي طاقة رمزية لا حدود لها فهي أشبه بتميمة مباركة تتوعّد كلّ من يلحق ضرًا بالأولياء بجزء من جنس دنسه، فكل تعدّد على قداسة الولي يعجّل العقاب الدنيويّ قبل العقاب الأخرويّ، لذا نطالع في الحلل السّندسية حُلما يراه رجل صالح ومضمونه أنّ الأستاذ عبد القادر الجيلاني يظهر له في الحلم ويدلّه على مكان مدفع ليحارب به حسين باي داي الجزائر، ونظرا للثقل الرّمزيّ الذي يحتله الصّالحاء¹ في النّفوس يلتجئ إليهم مؤلف الخطاب الذي يتدثّر بدثار شرعيّ لتحقيق غايات سياسية، فتوظّف الأعلام² توظيفا سياسيا، ليتحقّق النّصر للباي حسين، يورد السّراج تفسيراً لحادثة، "ووجه إظهار هذا المدفع المبارك، أنّ رجلا من الصّالحين رأى الأستاذ -نفعنا الله به- مناما، فقال له: سر إلى حسين باي، وقل له: يرسل من جنابه أناسا للبحيرة يحفرون هناك، ويخرجون مدفعا نحاسا من تحت الأرض، قال وأوقفه على المحلّ المعين، أذن بالحفر هنالك، فانتبه الرجل (...)"³، فيفضل الحلم وببركة الشّيخ الولي عبد القادر الجيلاني والرجل الصّالح، انتصر حسين بن علي في معركة الرابعة ضدّ دايات الجزائر، الأمر الذي تحقّق فعلا وكان الانتصار المساند بقوة غيبية رمزية جعلت النّصر ساميا متعاليا يستمدّ نفحته من عناصر تخيلية، فيستعيد قواه ويشجّد همم المجموعة تلك التي أوهنتها الحروب المتتالية ممّا يدلّ على حاجة ملحة لدفع معنويّ ونفسيّ بعد الهزائم الشّديدة التي مُني بها حسين بن علي، فكان الحلم سندا يلقي قبولا حسنا عند المؤمنين بفاعليته، إنّ لهذه الأعلام وظائف متعدّدة تهض وقت الشّدائد والملمّات لتصوغ رؤية منسجمة، فتقوم هذه الرّؤى المتعدّدة المنفتحة على اهتماماته بالإجابة عن مشاغله في لغة حكائية تخيلية لا تخلو من أبعاد توجميهية هي عماد مواضع ثقافية وسنن تضبط العلاقات الاجتماعية والسياسية، وهي إلى ذلك محلّ قبول ورضا، إنّها تستجيب لأفق معرفيّ صاغ التّصوّرات صوغا جديدا في قالب أشبه بالتّفكير الخرافيّ.

لقد ساهمت هذه المصادر التاريخيّة في تمجيد سيرة الباي حسين بن عليّ في خطابات متقاربة النّسج متعدّدة الأوجه، فكانت لسانا ناطقا عن ولائها ودعمها لكلّ خيارات الباي وإنجازاته والتّنظيمات التي ارتأها في سياق بناء الدّولة، ولذا تنوّعت الحُجج وسُبل التّوظيف ومصادر الشّواهد في الخطابات.

خاتمة:

لكلّ نصّ من النّصوص أنفة الذّكر غايات وأسباب والنّظر في خطابها يُبين عن غايات سياسية تتّصل بالتّنظيمات وقرارات الباي حسين بن عليّ وهو يثبّت أركان حكم دولته، فمخطوط "إعلام الأعيان بتخفيفات الشرع عن العبيد والصبيان" لأحمد برناز الحنفيّ فقهّيّ تنظيريّ، إلا أنّ الوصل بين تاريخ تحبيره والأوامر العلية التي أصدرها حسين بن عليّ بتنظيم التّعليم بالزّيوتونة وإنشاء عدد من المدارس يدعوننا إلى الحفر في ثنايا النصّ رغم أنّه فقهّيّ يوغل في التّعالّي، وعكسه كان كتاب "الشّهب المخرقة لمن ادّعى الاجتهاد لولا انقطاعه من أهل المخرقة" مصرّحا بغايات التّأليف وأوامر الباي بكتابته ردّا على شيخ حنفيّ رفض التّدريس في جامع الزّيوتونة ليشوّش على مشروع الباي الحسينيّ في تطعيم مالكيّة الزّيوتونة بشيوخ حنفيّة، وإذا كان حسين بن عليّ قد وظّف أحمد برناز الحنفيّ ويوسف برتقيز الحنفيّ صاحب أضخم كتاب فقهّيّ حنفيّ لدعم حضور المذهب الرّسنيّ،

¹- انظر: البشروش (توفيق)، الولي الصّالح والأمير، ترجمة المؤلّف، دار سيماترا، تونس، 2013.

²- حول توظيف الأعلام وأبعادها انظر:

زيعور (عليّ)، الكرامة الصّوفية والحلم: القطاع اللّاواعي في الدّات العربيّة، دار الأندلس، بيروت، 1994.

³- السّراج، الحلل، ج3، ص 39.

فإنّ نفس الباي احتاج توظيف الكتابات المالكيّة لتبرير قرارات سياسيّة أو إشهارا لفضائله ومنجزاته، فمثّلت مادّة مخطوط "قرّة العين وقمع ذي المين في نشر فضائل الملك حسين" لمحمّد سعادة المنستيري وثيقة مهمّة لتنظيمات الدّولة لمؤسّساتها الشرعيّة، وأصدر الفقيه المالكي فتوى تُبيح للباي أن يعدل عن تنصيب ابن أخيه علي باشا وليّاً للعهد وتولية نجله محمد الرشيد باي عوضا عنه، فتوى ما كان لها أن تكون لولا الاعتماد على مذهب غير مذهب الباي، ليكون التّنوع المذهبيّ سبيلا لتوفير اختيارات تتقوّل مع الحوادث والحاجيات، وحتّى كتب التّراجم التي تقترب أحيانا من السّير المنقبيّة في ذيل البشائر لحسين خوجة والحلل السّندسيّة للوزير السراج أغرقت مدحا لذكر فضائل الباي مشيّد المدارس ومحليّ الزّوايا وهازم الأعداء وناشر العلم والعدل ومحبيّ المواسم والأعياد.

لقد كان التّأليف و"رجال القلم" محلّ تجاذب بين رجال السّلطة، ولذا لحق الكتاب الطّمس والإتلاف وهو حال الجزء الرابع من "الحلّ السّندسيّة"، وإعادة النّسخ وهو ما كان من أمر "المنن على مختصر القدوري" بطلب من أبناء حسين بن عليّ بعد استرجاع عرش أبيهم، ومحاولة الاستقطاب ومثاله تحويل وجهة محمد سعادة من مفتي الباي حسين بن عليّ إلى مقرّظ للباي الجديد عليّ باشا، ليكون ذلك ردّا على الفتوى السّابقة بتنحيته عن ولاية العهد، لقد عرف رجال القلم آليات الإبعاد والاحتواء والأمر والعنف نفيا وسجنا وقتلا، ليكونوا أداة طيّعة بين يدي صاحب السّلطة.

قائمة المصادر والمراجع:

1-المخطوطات:

- برتقيز (يوسف)، المنن على مختصر القدوري أبي الحسن، مخط د.ك. و بتونس 14725-14726-14727-14728 ورقم 16652 و 5161.
- برتقيز (يوسف)، هداية الصّبيان، مخط د.ك. و بتونس ضمن مجموع 924 (ورقة 15 ب إلى 26 أ).
- برناز (أحمد)، إعلام الأعيان بتخفيفات الشرع عن العبيد والصّبيان، مخط د.ك. و بتونس أرقام: 3885-4569-6242.
- سعادة (محمد)، قرّة العين وقمع ذي المين بنشر فضائل الملك حسين، مخط د.ك. و بتونس 7129-21730.

2-المطبوعة:

- برناز (أحمد)، الشّهب المخرقة لمن ادعى الاجتهاد لولا انقطاعه من أهل المخرقة، تحقيق وتقديم الطّاهر المعموري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1990.
- بيرم الثّاني (محمد)، التّعريف بنسب الأسرة البيرميّة، تقديم وتحقيق لضو بسياسة، نقوش عربية، تونس، 2010.
- بيرم الثّاني (محمد)، شرح الشّيخ بيرم الثّاني على نظمه في المفتين الحنفيّة بتونس المحميّة، تحقيق محمّد الزّاهي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999.
- خوجة (حسين)، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، تحقيق الطّاهر المعموري، الدّار العربيّة للكتاب، تونس، 1975.
- السّعداوي (أحمد)، تونس زمن حسين بن عليّ وعليّ باشا 1705-1756 وثائق أوقاف من العهد الحسيني، دراسة وتحقيق، كليّة الآداب والفنون والإنسانيّات بمنّوبة ومخبر الآثار والعمارة المغاربيّة، مجمّع الأطرش للكتاب المختصّ، تونس، 2015.

- ابن عبد العزيز (حمودة)، الكتاب الباشي: قسم السيرة، تحقيق محمد ماضور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970.
- الوزير السراج (محمد بن محمد الأندلسي)، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984.
- ابن يوسف (الصغير)، المشرع الملكي في سلطنة أولاد عليّ تركي، تقديم وتحقيق د. أحمد الطويلي، المطبعة العصرية، تونس، ط1، 1998، ج 1 و 2، 2008.

3-المراجع:

- البشروش (توفيق)، الولي الصالح والأمير، ترجمة المؤلف، دار سيماترا، تونس، 2013.
- زيعور (علي)، الكرامة الصوفية والحلم: القطاع اللأواعي في الذات العربية، دار الأندلس، بيروت، 1994.
- عبد السلام (أحمد)، المؤرخون التونسيون في القرون 17 و18 و19: رسالة في تاريخ الثقافة، ترجمة عبد الرزاق الحليوي وأحمد عبد السلام، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون بيت الحكمة، قرطاج، 1993.
- كوثراني (وجيه)، السلطة والمجتمع والعمل السياسي: من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1988.
- عبد اللطيف (كمال)، في تشریح أصول الاستبداد: قراءة في نظام الآداب السلطانية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1999.
- المريبي (محمد)، إباضية جزيرة جربة خلال العصر الحديث، كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمتونة ودار الجنوب للنشر، تونس، 2005.

4-الأعمال الجامعية:

- التائب (منصف)، بلاط باردو في عهد حسين بن عليّ 1705-1735، شهادة الكفاءة في البحث، إشراف د. محمد الهادي الشّريف، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1990.
- شيخة (جمعة)، تحقيق مفاتيح النصر في التعريف بعلماء العصر للعباضي الباجي، شهادة الكفاءة في البحث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية 9أفريل، تونس، 1971.

5-المعاجم:

- بنين (أحمد شوقي) والطوبي (مصطفى)، مصطلحات الكتاب العربي المخطوط (معجم كوديكولوجي)، الخزانة الحسنية بالرباط، ط 5 مزيدة ومنقحة، 1440 هـ/2020م.

6- المقالات والبحوث:

- السعداوي (محمد إبراهيم)، "القيروان قاعدة الصفّ الحسيني من خريف عام 1735م إلى نهاية سنة 1736م"، التنوير (مجلة علمية محكمة يصدرها المعهد العالي لأصول الدين جامعة الزيتونة- تونس)، العدد 12، السنة 1431 هـ/2009-2010م، صص 291-345.

- السّلاميّ (صدق)، "مأسسة جامع الزيتونة ونظام التدريس قبل إصلاحات القرن التاسع عشر"، كراسات فريقيا (مجلة علميّة محكمة تصدر عن المعهد العالي للعلوم الإنسانيّة بجندوبة)، العدد 2، 2022.
- اللّواتي (محمد)، "معطيات جديدة حول مخطوط قرّة العين لمحمد سعادة"، ضمن: التراث المكتوب، جمع د. فتحي جزّاي، المعهد الوطني للتراث، تونس، 2017.
- الهيلة (محمد الحبيب)، "مفتاح النّصر في التعريف بعلماء العصر"، النّشرة العلميّة للكلية الزيتونيّة، العدد 4، السّنة 4، تونس، 1976-1977م.
- الهيلة (محمد الحبيب)، "المادّة التّاريخيّة من كتاب قرّة العين لمحمد سعادة"، المجلة التّاريخيّة المغاربيّة، السّنة الثامنة، العدد 23، نوفمبر 1981.

7- باللّغات الأجنبيّة:

- Berguaoui Sami, « Des Turcs aux Hanafiyya, La construction d'une catégorie « métisse » à Tunis aux XVII^e et XVIII^e siècles » in www.cairn.info, Editions de l'EHESS, 29-5- 2015.
- Bargaoui (S), «Débats identitaires et logiques territoriales: L'administration de la justice malikite à Tunis à l'époque moderne», *Studia Islamica*, no. 97, 2003, pp 121-153.
- Chérif (M.H) , Pouvoir et société dans la Tunisie de H'usayn Bin Ali 1705-1740, Publications de l'Université de Tunis, 1984, 2 Tome.
- Chérif (M.H) , Hommes et religion et pouvoir dans la Tunisie de l'époque moderne, Annales, Economies, Sociétés, Civilisation, 35 é année, N 3-4 , 1980, pp 580-597.
- Lewis, Bernard, Le langage politique de l'islam, Paris, Gallimard, 1988.
- Repp, R.C, The Mufti of Istanbul ; A study in the development of ottoman learned hierarchy, Oxford, U .K, Ithaca press, 1986.
- Weber (M), Economie et société, Trad. J. Freund et autres, Paris, Plon,1971.

ابن خلدون وتيريون لانستر وسبيل البحث عن العدالة: عصر وسيط جديد والموروث الخلدوني في صراع العروش
Ibn Khaldun and Tyrion Lannister and the Search for Justice: A New Medieval Age and the
Khaldunian Legacy in Game of Thrones

د. محمد البشير رازقي/المعهد العالي للعلوم الانسانية، جندوبة، تونس

Dr. Mohamed Bechir Rezgui/ Higher Institute of Human Sciences, Jendouba, Tunis

ملخص:

هل يمكن أن نفهم عبارة "العصور الوسطى الجديدة" من خلال ملحمة الجليد والنار، وشخصية ابن خلدون؟ وهل نحتاج في العالم العربي راهنا إلى نظرتنا الخاصة والأصيلة إلى نظرية "العصور الوسطى الجديدة"؟
تبيّن لنا من خلال هذا البحث على المُعنون " ابن خلدون وتيريون لانستر Tyrion Lannister وسبيل البحث عن العدالة: عصر وسيط جديد والموروث الخلدوني في صراع العروش Game of Thrones" التشابه الشديد بين شخصية تيريون لانستر وهي شخصية محورية في صراع العروش وعبد الرحمان ابن خلدون سواء على مستوى النشأة أو السيرة السياسية والحياتية. استفاد إذا هذا العمل الروائي/التلفزيوني من إرث انساني عريق نظراً لمسألة الحكيم السياسي والمستشار، وهذا ما حملنا على القول بأهمية التعامل الدائم مع أعمال عبد الرحمان ابن خلدون، ولما لا إنتاج نظرية في مسألة "العصور الوسطى الجديدة" من خلال أعماله.

الكلمات المفتاحية: صراع العروش، العصر الوسيط الجديد، ابن خلدون، تيريون لانستر، العدالة.

Abstract :

Can we understand the phrase "the new Middle Ages" through the epic of ice and fire, and the personality of Ibn Khaldun? Do we, in the Arab world, need our own and original view of the theory of the "new Middle Ages"? Through this research on the title "Ibn Khaldun and Tyrion Lannister and the way to search for justice: a new mediating era and the Khaldunian legacy in the Game of Thrones", we have found the strong similarity between the personality of Tyrion Lannister, who is a central figure in the Game of Thrones, and Abd al-Rahman Ibn Khaldun, both on the other hand. The level of upbringing or the political and life biography. So this fictional/television work benefited from a long-standing human legacy that theorized the issue of the political wise man and the advisor. This is what makes us say the importance of always dealing with the works of Abd al-Rahman Ibn Khaldun, and why not produce a theory on the issue of the "new middle ages" through his works.

Keywords: Game of Thrones, New Medieval Age, Ibn Khaldun, Tyrion Lannister, Justice.

مقدمة:

مثّل منصب المستشار لبّ رحي رواية صراع العروش التي تحوّلت إلى مسلسل ناجح جدًّا¹، إلى جانب موروث حضاري عربي ضخم في حقل نصيحة الملوك والمرايا السلطانية. تتشابه الإشكالية الرئيسية التي نطرحها في هذا البحث مع معطى أول وهو الحديث المتواصل مؤخرًا عن انبعاث "عصر وسيط جديد"، ومعطى ثانٍ يتمثّل في الإرث الخلدوني المغيب في سلسلة الجليد والنار مع التشابه المفرط بين ابن خلدون وتيريون لانستير Tyrion Lannister سواء على مستوى السيرة الحياتية أو المبادئ السياسية.

خضع العمل الأدبي صراع العروش Game of Thrones لدراسات أكاديمية عديدة، سواء على مستوى علاقة موسيقاه التصويرية لتمثّلات العصر الوسيط²، أو استرجاعها لتراث شعبي وموروث حكايةٍ أوروبي وعالمي تليد³، أو علاقة العمل الأدبي بطبيعة الثقافة الجنسية خلال العصر الوسيط⁴ ودور نجاح هذه الرواية/السلسلة في إثارة مسألة التغيرات المناخية مع الانتشار الكبير لعبارة "الشتاء قادم Winter is Coming" وتأثير الصراعات بين أصحاب النفوذ على التغيرات المناخية، وتأثير التغيرات المناخية في اشتداد هذه الصراعات⁵.

تناولت دراسات أخرى خطاطات القوة والنفوذ السياسي التي تمفصلت مع أحداث الرواية⁶. كما أثار النجاح التلفزيوني للرواية النقاش من جديد حول نشأة "عصور وسطى جديدة"⁷، وتزامن ذلك مع تطوّر التنظير لنظرية الشواش Chaos Theory في ميدان العلوم السياسية عربيًا وعالميًا⁸، ساهمت رواية صراع العروش على إعادة استحضار مرتكزات الحكم والحياة اليومية في العصور الوسطى سواء من طرف المؤسسة العالمية أو المشاهدين العاديين⁹، وتشابك ذلك مع زمن عصيب عايشه العالم سواء مع الأزمة الاقتصادية العالمية (2007-2009)، أو مع كارثة فوكوشيما النووية في اليابان (مارس 2011)، أو التسرب النفطى الرهيب الذي شهده خليج المكسيك (أفريل 2010)، أو بعد الحركات الاحتجاجية التي انطلقت في عدد من بلدان العالم العربي بداية من سنة 2010. مثّلت سلسلة "صراع العروش" مصدر إلهام، على الأقلّ على مستوى اقتباس العنوان، لعدد من

¹ محمد الفقي، "المستشارون في لعبة العروش"، مجلة العربي، الكويت، العدد 767، أكتوبر 2022، ص 148-153.

² Shiloh Carroll, Medievalism in A Song of Ice and Fire and Game of Thrones, Boydell and Brewer, D. S. Brewer: Series: Medievalism, 2018

³ Sandra Laugier, Spoilers, "Twists, and Dragons: Popular Narrative after Game of Thrones", in: Ian Christie and Annie van den Oever, Stories, Amsterdam University Press, Series: The Key Debates: Mutations and Appropriations in European Film Studies, 2018, p143-152.

⁴ Tristan Brossat and Louise Delavier, "Game of Thrones: Violence and Sex in the Middle Ages", Esprit, No. 407 (8/9) (Août-septembre 2014), p. 217-219

⁵ Despina Kakoudaki, "A Virtual Winter: On the Absence of Ecology in Game of Thrones", Film Quarterly, University of California Press, Vol. 73, No. 1 (FALL 2019), p 42-53.

⁶ Inbar Shaham, "The Wheel of Power in HBO's Game of Thrones", Mythlore, Vol. 40, No. 2 (Spring/Summer 2022), p. 54-72

⁷ محمد حمشي، "نظرية التعقّد في العلاقات الدولية: النظام الدولي كنظام معقّد وشواشي السلوك"، المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، العدد 484 (حزيران/ يوليو 2019)، ص 108-123؛ محمد حمشي/عادل زقاغ، "عن السياسة ما بعد الدولية: تعايش بين نظامين أم عصر وسيط جديد"، سياسات عربية، العدد 54، المجلد 10، (كانون الثاني- يناير 2022)، ص 7-24.

⁸ محمد حمشي، مدخل إلى نظرية التعقّد في العلاقات الدولية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة/بيروت، 2021.

⁹ KellyAnn Fitzpatrick, Neomedievalism, Popular Culture, and the Academy: From Tolkien to Game of Thrones, Boydell and Brewer, D. S. Brewer. Series: Medievalism, 2019.

الباحثين لتأويل الأحداث التاريخية وانعكاسها على الحاضر مثل عمل توماس لومبير Thomas E. Lambert الذي استرجع مرة أخرى صراع "العصر الوسيط" بين الأفتان والنبلاء دارسا دور "صراع العروش" هذا في نشأة الرأسمالية ونشأة الدول الأوروبية وسهرها على وتمويل حروبها وإمبراطورياتها فيما وراء البحار¹، لا يخفى علينا هنا العلاقة بين الصدى الذي خلفه هذا البحث وزمن نشره مع توظيفه لعبارة "صراع العروش" بالأطروحات الحديثة حول تفقر الرأسمالية لصالح نظم ومراكز نفوذ أخرى مثل الصّين وروسيا²، وهذا ما ينبئ بإمكانية نشأة صراع عروش جديد، وبالتالي عصر وسيط معاصر.

نطرح في هذا البحث عددا من الإشكاليات الأساسية: هل يمتثل تيريون لانستر ابن خلدون ثانٍ في ملحمة الجليد والنّار؟ وما هي علاقة نجاح هذه الشخصية بما طُرح مؤخراً في العالم عموما وفي العالم العربي خصوصا حول بروز سمات العصور الوسطى الجديدة؟

الكاريزما، الماضي وبناء المكانة الاجتماعية

تشابه الحياة العائلية لتيريون لانستر مع ابن خلدون، وُلد ابن خلدون مثله مثل تيريون في مجتمع مطبوع "بطابع البعثة والتركيب، وهو ما يجب أن نربطه بالتنوع الكبير في الأصول واللغات والمعتقدات الدينية وأشكال الحياة"³. كما تزوّج ابن خلدون "محضية من أصول مسيحية"، مثل تيريون، كما توفي أفراد من عائلة ابن خلدون ومنها زوجته، مثل تيريون⁴، عايش ابن خلدون ظروفًا درامية في طفولته سواء من خلال الطاعون الأسود (1348) و"التقلبات السياسية والحروب" وموت أهله ومعظم أساتذته⁵، وهذا ما عايشه تيريون سواء من خلال أزمته الشخصية (قصر قامته حيث حاولت عائلته قتله) أو من خلال الحروب العديدة التي شهدتها الممالك السبعة، كما حاول عدد من الناس قتل تيريون، وهذا أمر يتشاركه مع ابن خلدون، وهو قاسم مشترك في حياة البلاطات، قال مخاطبا حارسه الشخصي: "عدد من الناس في هذه المدينة يريدون قتلي ومهمتك هي حمايتي"⁶.

رَكَز كاتب ملحمة الجليد والنار على مسألة الكاريزما وبناء المكانات الاجتماعية وتوظيف ذلك في صناعة الحشود ونسج شبكات الولاء⁷، والتعقد الشديد للشخصيات⁸، قال تيريون لانستر ذات مرة: في "بعض الأوقات، المكانة مفهوم تجريدي"⁹،

¹ Thomas E. Lambert, "Game of Thrones, Game of Class Struggle, or Other Games? Revisiting the Dobb–Sweezy Debate", World Review of Political Economy, December 2020, p.455- 475.

² Thomas Piketty, *A Brief History of Equality*, Translated by Steven Rendall, Harvard University Press, 2022; Thomas Piketty, *Capital and Ideology*, Translated by Arthur Goldhammer, Harvard University Press, 2020; Thomas Piketty, *Capital in the Twenty-First Century*, Translated by Arthur Goldhammer, Harvard University Press, 2014.

³ عبد السلام شدّادي، ابن خلدون: الإنسان ومنظر الحضارة، ترجمة: حنان قصاب حسن، المكتبة الشريفة، بيروت، 2016، ص 27.

⁴ نفس المرجع، ص 38.

⁵ نفس المرجع، ص 45.

⁶ الموسم الثالث الحلقة 1 Game of Thrones

⁷ Cyrille Sardais, Marine Agogué, « La fin du charisme, la chute du personnage de Daenerys dans la série Game of Thrones », Revue française de gestion, 2022/2 (N° 303), p.125-142.

⁸ Florian Besson, Justine Breton, « Tous les hommes doivent mourir, mais nous ne sommes pas des hommes : La place des femmes », in: Florian Besson, Justine Breton, Une histoire de feu et de sang: Le Moyen Âge de Game of Thrones, Presses Universitaires de France, 2020, p.177- 207.

⁹ Game of Thrones الموسم الأول الحلقة 6

وأيضاً: "نصف رجل ربّما (أي قصير) ولكن لديّ الشجاعة كي أواجه أعدائي"¹، ويمكن أن نعوض على مستوى الدراسات الخلدونية مصطلح الكاريزما بعبارة "العصبية" الأساس المتين للرئاسة²، من ناجية أخرى لعبت عائلة بني خلدون "دورا هاما في الدولة الحفصية"، وقد لاحظ عبد السلام شدّادي "العناية الخاصة التي كان يولمها (أي ابن خلدون) للتذكير بأدقّ تفاصيل سلالته"، مع التذكير الدائم بالأعمال "العظيمة لأجداده الأكثر تميّزا"³، سعى ابن خلدون إلى تشكيل مكانة اجتماعية لنفسه من خلال بناء ماضٍ مجيد لعائلته لشرعنة تموقعه في حاضره أساسا، فتاريخ عائلته امتزج "بتاريخ الأندلس وافريقية، وفي مجال أبعد يُسائر تاريخ الإسلام في بداياته الأولى ويرتبط به"⁴، أي تتركّز المسألة ترسيخ للأصول المشتركة بين العائلة والإسلام والبلطات.

راهن تيريون لانستر على العلم لبناء مكانته الاجتماعية، فبسبب قصر قامته وضعف جسده لن يتمكن من الوصول إلى مكانة الفارس أو المحارب، سأل جون سنو تيريون لانستر "لماذا تقرأ كثيرا؟"، أجاب: "أنظر إليّ وأخبرني ماذا ترى، ما تراه هو قزم إن كنت وُلدت فلاحا ربّما قد تركوني في الغابات كي أموت، للأسف قد وُلدت من آل لانيستر في كاستلي روك، كانوا ينتظرون مجيبي، والدي كان مساعد الملك لما يقرب من عشرين عاما... حتى قام أخي بقتله، الحياة مليئة بالكثير من المفارقات... يجب أن أقوم بدوري في تشریف عائلتي، ولكن كيف(؟)، حسنا أخي لديه سيفه وأنا لديّ عقلي، والعقل بحاجة إلى كتاب مثلما يحتاج السيف إلى مُشجذ، هذا سبب قراءاتي الكثيرة يا جون سنو... كل شيء سيكون أفضل مع وجود بعض النبيذ في البطن"⁵، راهن ابن خلدون أيضا على العلم، حيث يشترك مع تيريون في عصاميته، فلم يتلقّى ابن خلدون تعليما متكاملًا استنادا لمعايير زمانه "لأنه انخرط مبكرا في الحياة السياسيّة"، ونال معارفه أساسا من خلال التجربة والحياة، حيث وُصف النظام التعليمي الذي تلقاه ب"العشوائي"⁶، وقد عانى ابن خلدون تحقيرا وتهميشا من منافسيه بسبب طبيعة تعليمه حيث حَقّر وقُلل من شأنه⁷.

أبرز تيريون لانستر وعيا مفرطا بأهمية المال سواء في بناء المكانة الاجتماعية الشخصية أو العائلية أو لبقاء الدولة، قال ذات مرة: "إن كنت تريد أن تصبح مشلول، من الأفضل أن يكون غنيا مشلولا"⁸، أيضا "عائلي غنيّة، لدينا ذهب الكثير من الذهب"⁹، وكثيرا ما كان يردّد مثلا وهو: "غنيّ مثل آل لانيستر"¹⁰، وورد عن تيريون في مكان آخر من الملحمة: "والدي تقريبا أقوى رجل في البلاد وبالتأكيد الأغنى، إنه يضع الممالك السبع في جيبه، كل شخص في كلّ مكان يفعل تماما ما يُمليه عليه أبي"¹¹، من

¹ Game of Thrones الحلقة الأولى الموسم 8

² وليّ الدين عبد الرحمان بن محمد بن خلدون، مقدّمة ابن خلدون، حَقّق نصوصه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، الطبعة الأولى، 2004، ص 260-263.

³ عبد السلام شدّادي، مرجع مذکور، ص 33-34.

⁴ عبد السلام شدّادي، مرجع مذکور، ص 38.

⁵ Game of Thrones 2 الحلقة الأولى الموسم 2

⁶ عبد السلام شدّادي، مرجع مذکور، ص 39 + الإحالة عدد 1.

⁷ نفس المرجع، ص 40 وما بعدها.

⁸ Game of Thrones 3 الحلقة الأولى الموسم 3

⁹ Game of Thrones 6 الحلقة الأولى الموسم 6

¹⁰ Game of Thrones 6 الحلقة الأولى الموسم 6

¹¹ Game of Thrones 10 الحلقة الأولى الموسم 10

ناحية أخرى أبرز ابن خلدون "كيفية طروق الخلل للدولة" وهي أساسا ضعف الشوكة والعصبية من خلال ضعف الجند ويحصل هذا الأمر عبر غياب المال¹.

نلاحظ تشابها غريبا بين شخصيتي تيريون لانستر Tyrion Lannister وعبد الرحمان ابن خلدون، حيث ينحدر آل لانستر من "المغامرين الأنداليين"²، ولا يخفى علينا هنا التشابه بين مصطلح "الأنداليين" ومصطلح "الأندلس" المنبع الجغرافي لعائلة ابن خلدون³، وكان شعار عائلة لانستر "أسد ذهبي على خلفية قرمزية"، والمثير هنا أنّ الأسد كثيرا ما كان يحضر في أعلام الإمارات الأندلسية.



عائلة لانستر

الأسد: شعار عائلة لانستر⁵.



حضور الأسد في أحد الأعلام الأندلسية⁴.

ناصح السلطان، مساعد الملك وممارسة السياسة

اهتمّ عدد من الأبحاث بشخصية تيريون لانستر Tyrion Lannister ودوره المركزي في سلسلة "الجليد والنار" وإتقانه دور المستشار مع حرصه على المحافظة على التوازن بين مراكز القوة والنفوذ وأقطاب الصراع، مع التقليل قدر الإمكان من أضرار هذا الصراع⁶، طرحت هذه الشخصية معضلة الأخلاق في الصراع والحرب⁷، والحياة اليومية، بل يمكن اعتبار السلسلة عموما

¹ وليّ الدين عبد الرحمان بن محمد بن خلدون، مقدّمة ابن خلدون، حقّق نصوصه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، الطبعة الأولى، 2004، ص. 487.

² جورج ر. ر. مارتن، أغنية الجليد والنار. 1. لعبة العروش، ترجمة: هشام فهد، دار التنوير، بيروت، 2016، ص. 1029.

³ عبد الرحمان بن محمد الحضرمي الإشبيلي، رحلة ابن خلدون، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004، ص. 29-32.

⁴ http://andalusway.blogspot.com/2017/06/blog-post_20.html

شُوهد في 2022/12/29 الساعة: 19:28.

⁵ جورج ر. ر. مارتن، أغنية الجليد والنار. 1. لعبة العروش، مصدر مذکور، ص 1029.

⁶ Patricia Monk, "Tyrion Lannister: A Fulcrum of Balance in George R.R. Martin's A Song of Ice and Fire", *Mythlore*, Vol. 36, No. 2 (132) (Spring/Summer 2018), p5-22

⁷ لتتعمّق في مسألة أخلاقيات الحرب وخاصّة مصطلح "الحرب العادلة" أنظر: ديفيد فيشر، الأخلاقيات والحرب: هل يمكن أن تكون الحرب عادلة في القرن الحادي والعشرين، ترجمة: عماد عوّاد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، عدد 414، 2015.

ورشة مركزة لتشريح الأخلاق السياسية¹، والمسؤولية الأخلاقية للحاكم تجاه المحكوم²، وثنائية الشرعية والمشروعية في الحكم، أي من الجدير بالوصول إلى السلطة الابن، القوي أو الكفاء³، كما شكّلت الأخلاق رافداً أساسياً في تمثّل ابن خلدون لمسألة علم العمران عموماً وتقنيات الحكم خصوصاً حيث "تسيطر دائرة الأخلاق على الحياة الاجتماعية بكليتها، وفي الواقع فإنّ وجودها بهذا الشكل هو ما لعب دوراً كبيراً في تكوين السوسولوجيا الخلدونية"⁴.

أنتج صراع العروش صوراً نمطية حول معارضي الحكم ومن هم خارج المدن، حيث وُسّموا بـ "المتوحّشين" و "الهتج"، قال تيريون: "حراس الليل (المجنّدون في الجدار) هم الشيء الوحيد الذي يفصلنا عمّا يوجد وراء الجدار"⁵، وقد اعتمدت مقدّمة ابن خلدون على هذه الأساليب حيث وُصّمت فئات اجتماعية عديدة بـ "الغوغاء" و "السفلة" وغيرها⁶، كما قال تيريون، في إطار حديثه عن عواقب قتل أخته لإدوارد ستارك (Ned) Eddard Stark ممّا نتج عنه تجمّع الشمال ضدّ عائلته أنّ "أعداءنا يكرهون بعضهم بقدر كرههم لنا تقريباً"⁷، وتُحيلنا هذه القولة إلى تمثّل ابن خلدون لطبيعة المجتمع القبلي لشمال إفريقيا، الذي سُمّي فيما بعد بالانقسام⁸، وهي بعبارة ابن خلدون "العصبية" حيث "لا يصدق دفاعهم وزيادهم إلا إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد لأنهم بذلك تشتدّ شوكتهم ويخشى جانبهم إذ تُعرة كل أحد على نسبه وعصبية أهما"⁹.

تبرز الواقعية المفرطة في كلّ تصرّفات تيريون لانستر، تحدّث مرّة مع جون سنو قائلاً: "دعني أسدي إليك نصيحة أهما اللقيط: لا تنسى هويتك يوماً، بقية الناس لن يفعلوا، لتكن درعك وهذا لا يمكن أن تُستعمل لإيدانك يوماً"¹⁰، ماذا تعرف عن شعور اللقيط، الأقرام جميعاً لقطاء بنظر آباءهم"¹¹، وقال في سياق آخر أنّ "الموت هو نهاية حتمية، أمّا الحياة... الحياة مليئة

¹ Marianne Chaillan, « Les séries télévisées : un laboratoire de philosophie morale ? », Revue internationale de philosophie, 2022/3 (n° 301), p27-46.

² Florian Besson, Justine Breton, «Les pauvres ont toujours été la proie des puissants, c'est là la base du pouvoir: Exercer le pouvoir à Westeros», in: Florian Besson, Justine Breton, Une histoire de feu et de sang: Le Moyen Âge de Game of Thrones, Presses Universitaires de France, 2020, p209- 235.

³ Hoedaert, Loïc. Sciences politiques et relations internationales dans "Game of Thrones" : Légitimité, puissance et stratégie au cœur de la course au trône. Faculté des sciences économiques, sociales, politiques et de communication, Université catholique de Louvain, 2021. Prom. : Struye De Swielande, Tanguy. p18- 20. p.84- 86.

<http://hdl.handle.net/2078.1/thesis:30069>

⁴ ناصيف نصّار، الفكر الو اقمي عند ابن خلدون: تفسير تحليلي وجدلي لفكر ابن خلدون في بنيته ومعناه، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1981، ص 194.

⁵ الموسم الثاني الحلقة 2 Game of Thrones

⁶ ناجية الوريبي بوعجيلة، حفريات الخطاب الخلدوني: الأصول السلفية وهم الحداثة العربية، دار الجنوب للنشر، تونس، 2008، ص.323- 325.

⁷ الموسم الثاني الحلقة 1 Game of Thrones

⁸ Laroussi Amri, La tribu au Maghreb médiéval: pour une sociologie des ruptures. Université de Tunis 1, 1997

ليليا بن سالم، "التحليل الانقسامي لمجتمعات المغرب الكبير: حصيلة وتقويم"، في: الأنتروبولوجيا والتاريخ. حالة المغرب العربي، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1988.

⁹ المقدّمة، مصدر مذكور، ص.254.

¹⁰ تحدّثت جاكلين سوبليه Jacqueline Sublet في أعمالها عن هذا المعنى باعتبار الاسم حصناً وملجأ للإنسان، ويمكن أن يتحوّل إلى عار. أنظر:

Jacqueline Sublet, *Le voile du nom. Essai sur le nom propre arabe*, Paris, PUF. coll. Écriture, 1991

¹¹ الموسم الأول الحلقة 1 Game of Thrones

بالاحتمالات¹، كما راهن ابن خلدون على الواقعية ومطابقة التمثلات بالممارسات، وعدم بعد العلماء عن السياسة²، إلى درجة مقارنة بعض الباحثين ابن خلدون بمكيا في³.

خاطب تيريون أخته بعد أن لاحظ أخطاءها في تسيير المدينة: "نصف المدينة يتضورون جوعاً عندما يأتي الشتاء والنصف الآخر سيخططون للإطاحة بك"⁴، أفرد ابن خلدون فقرات عديدة لمسألة "المعاش" في مقدمته سواء على مستوى الفلاحة أو السكة أو الجباية والتجارة والأسواق⁵، كما أبرز ابن خلدون في مواضع كثيرة في المقدمة نقداً وتشكيكاً في روايات عديدة مثل نقاشه "أمر الفاطمي وما يذهب إليه الناس في شأنه وكشف الغطاء عن ذلك"⁶، من ناحيته، تحدّثت تيريون لانستير عن الأساطير التي تُحاط عن الجدار وما وراءه: "أنا لا أصدّق أن العمالقة والغيلان والموتى والأحياء يختبئون خلف الجدار، أنا أصدّق أن الفرق الوحيد بيننا وبين البرية هو أنه عندما أُقيم هذا الجدار كان أسلافنا يعيشون على الجانب الآخر منه"⁷.

نسجّل تشابهاً آخر بين شخصية تيريون لانستير Tyrion Lannister وابن خلدون، وهو أولاً علاقة تيريون مع "الهمجيين" حسب عبارة والد تيريون، حيث احتاجه والده لكي يكون واسطة بينه وبينهم لتجنيدهم لحروبه مع آل ستارك، وأيضاً لتجنّب الحرب معهم، كان ابن خلدون على معرفة أيضاً بالأعراب وأهل البادية من ناحية، إلى جانب توظيفه من قبل أحد البلاطات للتفاوض مع تيمورلنك منعا لاقتحامه الشام⁸، صوّر تيريون في السلسلة كخبير في حياة "الهمج" مثلما نُظر إلى ابن خلدون كعارف في شأن أهل البادية والبربر والشأن القبلي عموماً، تسائل تيريون في أحد حواراته مع والده: "أنا ورجال القبائل في الخطوط الأمامية؟"⁹، وضعه والده كحلقة وصل بينه وبين "الهمج" لمعرفته بقدرة تيريون على محاورتهم وإقناعهم، كما اعتادت عائلة تيريون إنتاج صور نمطية حول هذه القبيلة من قبيل "الهمج" والشرسين¹⁰، ولا يخفى علينا الوصم التحقيري الذي كاله ابن خلدون لـ "الأعراب" في مقدمته، دخل تيريون في مفاوضات مع القبائل، يمكّنهم من حيازة أراضي واسعة، ويحاربون تحت إمرته، وتدّ نجح في ذلك، أقام ابن خلدون نظريته حول أصل الدولة على هذا المعطى باعتبار أن "البدواة أقدم من الحضرة وسابق عليه، وأنّ البادية أصل العُمران والأمصار مدد لها"¹¹.

¹ الموسم الأول الحلقة 2 Game of Thrones

² أبو يعرب المرزوقي، إصلاح العقل في الفلسفة العربية: من واقعية أرسطو وأفلاطون إلى اسمية ابن تيمية وابن خلدون، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، 1996، ص. 233-260

³ علي الورد، منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته، دار كوفان للنشر، بيروت، الطبعة الثانية، 1994، ص. 19-21

⁴ الموسم الثاني الحلقة 2 Game of Thrones

⁵ المقدمة، مصدر مذكور، الجزء الثاني، ص. 65-87.

⁶ نفس المصدر، ص 514 وما بعدها.

⁷ الموسم الأول الحلقة 3 Game of Thrones

⁸ Arnaud Blin, « Tamerlan, conquérant de l'éphémère », in: Arnaud Blin, *Les grands capitaines*, Perrin. Collection : Tempus, Paris, 2020, pp.1336- 1405 ; Hervé Inglebert, « Les conceptions musulmanes de la totalité des temps (7^e-15^e siècles) », in: Hervé Inglebert, *Le Monde, l'Histoire: Essai sur les histoires universelles*, Presses Universitaires de France, Paris, 2014, pp.473- 511; Walter J. Fischel, « A New Latin Source on Tamerlane's Conquest of Damascus (1400/1401): (B. de Mignaneli's "Vita Tamerlani" 1416) », *Oriens*, Vol. 9, No. 2 (Dec. 31, 1956), pp. 201-232

⁹ الموسم الأول الحلقة 9 Game of Thrones

¹⁰ "أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضرة"، ابن خلدون، ص. 251.

¹¹ المقدمة، ص. 247.

أثبت تيريون خلال حرب والده مع آل ستارك قدرته على قراءة الأحداث، يقول تيريون عن نفسه: "أنا محلل شخصيات عظيم"¹، خاطبه والده قائلاً في خضم هذه المعركة بعد أن خُطف ولده الأكبر ووريثه: "كنت دائماً أعتقد أنك ضعيف وأحمق، ربّما كنت مخطئاً"²، ولهذا كافئه والده بتعيينه حاكماً نائباً له في عاصمة ويستروس Westeros "كينغ لاندينغ" King's Landing في منصب مساعد الملك³، قال تيريون عند وصوله لهذه المدينة: "لا يمكن الوثوق بأحد في كينغ لاندينغ كلّهم كدّابون... أنا لست من هنا، أنا عبد الحقيقة"⁴، دخل ابن خلدون من ناحيته معترك السياسة في ظرفيّة صعبة وصراعات دمويّة على السلطة حيث عُيّن في بداية شبابه "مستشاراً للسلطان" أبي إسحاق⁵، وقد تنقّل ابن خلدون بين بلاطات أخرى عديدة "في خدمة ملوك المغرب والأندلس" أو في المشرق⁶، كما كان دبلوماسياً فطناً ومهاوراً لبقاً ووسيطاً حيويّاً وأساسياً بين القبائل والبلاطات، سواء على مستوى التهذئة أو عقد التحالفات⁷، إذا كان ابن خلدون في خضم شبكات المصالح والصراعات السياسات سواء في المغرب أو في المشرق.

المجتمع ورهانات أصحاب النفوذ: الحكيم وزمن الخيبة

تشابكت المقدمة وصراع العروش في قاسم مشترك أساسي تخلّل كلا العملين: قانون العصبية المؤسس على قاعدة النسب والقرابة وشرعنة الحكم وترسيخ "الشوكة"⁸، دون نسيان مفهوم "الجاه" المساهم بطريقة حاسمة في تأسيس "الملك"⁹، قدّم ابن خلدون مرتكزات أساسية لتواجد مؤسسة الدولة، وتغيّب في غيابها وهي المعاش (الفلاحة، الأرض...)، والمال والجيش، إلى جانب "الجاه" والوجاهة الاجتماعية¹⁰، يُظهر لنا حوار تيريون مع دانيريس في أول لقاء بينهما طبيعة المشروع السياسي الناشئ، قال لها: "أتريدين الانتقام من آل لانيستر؟ لقد قتلت أمي جوانا لانيستر في يوم ولادتي، لقد قتلت والدي تايون لانيستر بسهم في قلبه أنا أعظم قاتل للانيستر على الإطلاق... عندما كنت شاباً سمعت قصة عن رضيع (ة) جديد(ة) تمّ ولادتها في أسوأ عاصفة عرفها الأحياء لم يكن لديها ثروة أو أراضي أو جيش مجرد اسم فقط وحفنة من الأنصار، معظمهم ظلّوا أن يوسعهم استخدام ذلك الاسم لينتفعوا بأبقوها حيّة، ونقلوها من مكان لآخر حتى على بعد ساعات من الرجال الذي أرسلوا لقتلها والتي بيعت في النهاية إلى أمير حرب ما على حافة العالم واتّضح أن هذا هو الأمر، وبعد بضعة سنوات أفضل شخص مُخبر أعرّفه أخبرني أن تلك الفتاة التي بدون ثورة وأراضي أو جيوش، بطريقة ما حصلت على الثلاثة في مدّة قصيرة جدّاً ومعها ثلاث تنانين، ظلّوا أنها الأفضل وآخر فرصة لبناء عالم أفضل (يقصد دانيريس) ظننت أنها تستحقّ المقابلة على أقرّ تقدير"، فأجابته دانيريس: "لماذا أضيع وقتي بالاستماع إليك؟"، أجابها "لأنك لا تستطيعين بناء عالم أفضل بمفردك، لا يوجد هناك من بجوارك يفهم الأرض التي تريدين حكمها، قوّة وضعف المنازل (أي العائلات) التي إمّا ستنضمّ لك أو تعارضك"، أجابته "سيكون لديّ جيش كبير

¹ الموسم الأول الحلقة 9 Game of Thrones

² الموسم 10 الحلقة 10 Game of Thrones

³ الموسم 10 الحلقة 10 Game of Thrones

⁴ الموسم الثاني الحلقة 1 Game of Thrones

⁵ عبد السلام شدّادي، مرجع مذکور، ص. 137.

⁶ نفس المرجع، ص. 140 وما بعدها.

⁷ إيف لاکوست، العلامة ابن خلدون، ترجمة: ميشال سليمان، دار الفارابي، بيروت، 2017، ص. 104-126.

⁸ نفس المرجع، ص. 222-243.

⁹ Abdesselam Cheddadi. "Le système du pouvoir en Islam d'après Ibn Khaldûn". In: *Annales. Economies, sociétés, civilisations*. 35^e année, N. 3-4, 1980. p 534-550

¹⁰ عبد السلام شدّادي، مرجع مذکور، ص. 373-510.

وتنانين كبير للغاية"، أجاها: "القتل والسياسة ليسوا نفس الأمر دائما، عندما خدمت كمساعد للملك أبلت حسنا في مناصبي بغض النظر إلى الملك الذي يفضل تعذيب الحيوانات عن قيادة شعبه، بوسعي أفعل أفضل من هذا بنصيحة حاكم يستحق الاسم، لو كان هذا بالفعل ما تكونين"، أجابته: "أتريد أن تنصحيني إذا؟ حسن"¹، في نفس الحوار أرادت دانيريس قتل معاونها السابق وصديق تيريون، قال لها تيريون: "الحاكمة التي تقتل الذي كرسوا حياتهم لها ليست حاكمة تلهم الجميع بتفان، وأنت بحاجة إلى الإلهام المخلص، الكثير منه لو كنت ستحكمين ما وراء البحر الضيق، ولكن لا يمكنك جعله بجوارك عندما تفعلين هذا"².

خاض تيريون حربا حاسمة وفاصلة دفاعا عن "كينغ لاندينغ" King's Landing، وكان هو القائد ضد جيش ستانيس باراثيون BaratheonStannis حيث وظف خطة "النار الجامحة" مما تسبب في تدمير جزء مهم من أسطول ستانيس، تزامن تنظيم ستانيس لجنوده ومحاصرته للمدينة انسحاب قائد الجيوش الميدانية فاضطر تيريون لأخذ القيادة الميدانية رغم عدم إتقانه للمبارزة، على عكس تميزه في التكتيك ورسم الاستراتيجيات، قال مخاطبا جنوده بعد انسحاب قائده الميداني محاولا اقناعهم بأحقيته: "أنا سأقود الهجوم، يقولون إنني نصف رجل (أي رجل قصير القامة) لكن ماذا يجعلكم هذا؟".

سئلته عنهم ونقضي عليهم من الخلف، لا تقاتلوا من أجل ملككم ولا لأجل ممالكه، لا تقاتلوا لأجل الشرف ولا لأجل المجد ولا تقاتلوا لأجل الثروات لأنكم لن تنالوا شيئا منها، هذه مدينتكم التي يسعى ستانيس لنهبها، وهذه التي يضرها هي بواباتكم، وإذا دخل سيحرق بيوتكم ويسرق ذهبكم ويغتصب نساءكم، هناك رجال شجعان يطرقون بابنا، فلنذهب ونقتلهم"³، وقد نجح تيريون في مهمته وأنقذ المدينة، قواسم مشتركة هنا كثيرة بين ابن خلدون وتيريون أهمها أنه رغم الدور المركزي لتيريون في حرب دحر جيش ستانيس باراثيون سواء كاستراتيجي أو كقائد للجنود، إلا أنه سرق منه انتصاره وتم تجاهله تماما ونزع عنه منصب "معاون الملك"⁴، وهذا ما لاقاه ابن خلدون في بلاطات عديدة زارها أو عمل معها، نكران الجميل وعدم الاعتراف⁵، ولهذا خاطب تيريون أباه قائلا: "ماذا أريد؟ قليل من العرفان سيكون بداية"⁶.

في هذا الإطار، خاطب الوزير فاريس المسؤول على التجسس تيريون بقوله: "هناك كثيرون يعرفون أنه لولاك لواجهت المدينة هزيمة مؤكدة، الملك لم يعزي إليك فضلا ولن يذكر التاريخ لكن نحن لن ننسى"⁷، أجاب تيريون عن هذا الموقف: "هؤلاء الناس الأشرار، الشيء الذي أجيد هو التفوق عليهم بالكلام وبالتفكير، هذا هو أنا وأحب هذا"⁸، سأل تيريون أباه عن سبب حرمانه من حقه سواء بالاعتراف أو بنزع لقب معاون الملك منه أو عدم تعيينه نائبا عنه في أحد المدن، أجاها والده قائلا: "أنت الذي قتلت أمك (خلال الولادة) لتأتي لهذا العالم، أنت مخلوق مشوه دنيء وحقوق يملكك الحسد والشهوة والمكر، الأعراف البشرية تمنحك الحق بحمل إسمي واستعراض رايي لأنني لا أستطيع أن أثبت أنك لست ابني، ولتعلمي الآلهة التواضع حكمت علي برؤيتك تتبختر قربي وأنت تضع شعار الأسد مدعاة الفخر الذي كان ختم أبي وأبيه من قبله، لكن لا الآلهة ولا

¹ الموسم الخامس الحلقة 8 Game of Thrones

² الموسم الخامس الحلقة 8 Game of Thrones

³ الموسم الثاني الحلقة 9 Game of Thrones

⁴ الموسم الثاني الحلقة 10 Game of Thrones

⁵ يبين أكسل هونيث Axel Honneth في مجمل أعماله الصراع الاجتماعي الرهيب حول "الاعتراف". أنظر: أكسل هونيث، الصراع من أجل الاعتراف: القواعد الأخلاقية للمأزق الاجتماعية، ترجمة: جورج كتورة، المكتبة الشرقية، بيروت، 2015.

⁶ الموسم الثالث الحلقة 1 Game of Thrones

⁷ الموسم الثاني الحلقة 10 Game of Thrones

⁸ الموسم الثاني الحلقة 10 Game of Thrones

البشر سيجبروني على السماح لك بتحويل كاسترلي روك (القلعة التي رغب تيريون في حيازتها) إلى ماخور لك... لا تتحدث بعد الآن عن حقك في كاسترلي روك"¹، من ناحيته عاش ابن خلدون "حياة شغلها القضاء وتنازعتها السياسة ودسائسها وتجاذبتها الخطط الرسمية التي تولّاهما في عهد سلالات حكمت اسبانيا وإفريقيا الشمالية ومصر"². كما عين ابن خلدون زمن صعب فتك به الطاعون، حاول فيه أن يتعايش مع سياقات عصره حيث انتقل بين عدد من البلاطات من المغرب إلى المشرق، إلى جانب توفقه إلى المعرفة ورغبته في تسطير قوانين "للتاريخ" عبر كتاباته³، ولم يكن حظّ ابن خلدون بأفضل من حظّ تيريون، بل لاقى نفس النكران، يتشارك تيريون لانستر مع ابن خلدون في أمر آخر مهمّ وأساسي ومحوريّ وهو تنقلهم بين البلاطات والمؤامرات العديدة التي تعرّضوا لها، فكثيرا ما تحدّث ابن خلدون عن: "التأليب عليّ والسّعاية بي"⁴، أو "كثرا سعاية البطانة بكلّ نوع من أنواع السعاعات، وابن عرفة يزيد في إغراءهم⁵ متى اجتمعوا إليه..."⁶، ولهذا سُجن ابن خلدون مثلما سُجن تيريون من جرّاء انغماسهم في رهانات زمانهم⁷.

انضمّ تيريون إلى بلاط جديد يتشابك في تكوينه التشدد الديني وانقسامه بين جماعات اثنيّة وعسكريّة وجماعات وظيفيّة (مرتزقة) وكاريزما ملكته وارثها العائلي التليد المنزوع لهم من طرف عائلات أخرى أهمّها عائلة تيريون نفسه، وحيازتها حصرا على سلاح فريد من نوعه: ثلاث تنانين، ولهذا حدّر وزير الجواسيس تيريون قائلا له: "عليك الاحتراس، لأنك قد تأكل بعض الطعام الفاسد بالخطأ (يقصد التسميم)"⁸، إذا هناك سلطة دينيّة (نشأة مؤسسة) وسلطة "العامة" من خلال نشأة مؤسسة المسرح ومشهدة العنف⁹. وقد شهد عصر ابن خلدون حراكا ولائيّا لافتا، إلى جانب ترسخ المؤسسة الدينية (المالكيّة أساسا) الرسميّة¹⁰، إلى جانب بروز "تنوّع كبير في أشكال التعبير عن الورع"¹¹، وهذا ما يذكّرنا بالأزمة الدينية التي تزامن وجودها في بلاط دانيريس وبلاط سيرسي حيث شكّلت المؤسسة الدينية لا فقط مركز ثقل بل منبعا للنفوذ والقوة والهيمنة.

المشروع الأمثل: العدل، الأخلاق والسياسة

وجّه وزير الجاسوسيّة خطابه إلى تيريون بقوله: "لديك العديد من الصفات المثيرة للإعجاب...أي أحقق مع قليل من الحظّ قد يجد نفسه مولودا بسلطة، ولكن اكتسابها لنفسك، هذا يحتاج عمل مضني...لديك غرائز والدك في السياسة ولديك رحمة"، وقال له أنه مناسب لتحقيق "السلام الازدهار، في أرض حيث لا يفترس القويّ فيها الضعيف"، أجابه تيريون: "حيث صُنعت القلاع من خبز الزنجبيل والخنادق مملوءة بخمر زهرة العليق، القويّ سوف يفترس الضعيف دائما، هذا سبب كونهم أقوياء من الأصل"، أجابه وزير الجواسيس: "يمكنك مساعدة آخر في الوصول إليه (للعرش الحديدي) والجلوس عليه، الممالك

¹ الموسم الثالث الحلقة 1 Game of Thrones

² أحمد عبد السلام، ابن خلدون وقرآؤه، تعريب: الصادق الميساوي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون: بيت الحكمة، قرطاج، 2020، ص.5

³ روبرت أرون، ابن خلدون: سيرة فكريّة، ترجمة: عبد الله فجير العمري، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، 2022.

⁴ عبد الرحمان بن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، 2004، ص.253

⁵ أحد أهم الفقهاء المالكيين في تاريخ البلاد التونسية. أنظر: سعد غراب، ابن عرفة والمذهب المالكي بإفريقية في القرن 8 هـ/ 14 م، ترجمة: نجم الدين الهنتاتي، معهد تونس للترجمة، تونس، 2022 (2 أجزاء).

⁶ عبد الرحمان بن خلدون، التعريف بابن خلدون، مصدر مذكور، ص.262-263.

⁷ محمد الخضر حسين، حياة ابن خلدون ومثّل من فلسفته الاجتماعيّة، مؤسسة هنداوي، مصر، 2013، ص.11-12.

⁸ الموسم الخامس الحلقة 2 Game of Thrones

⁹ أنظر في هذا الإطار: Paul Veyne, Le Pain et le Cirque. Sociologie historique d'un pluralisme politique, Seuil, Paris, 1976

¹⁰ عبد السلام شدّادي، مرجع مذكور، ص.72-95.

¹¹ نفس المرجع، ص.107-133.

السبع بحاجة لشخص أقوى من تومين (الملك الحالي وهو ابن أخته)...عاهل يمكنه تخويف الأسياد الكبار وإلهام الناس، حاكم يحبه الملايين ولديه جيش قويّ واسم العائلة الصحيح"، في هذا الإطار اقتنع تيريون بالانضمام إلى بلاط آخر منافس لبلاط عائلته: العمل تحت امرأة دانريس تارغرين Daenerys Targaryen "أمّ التنانين" حيث يستطيع أن يقرّر لو كان "العالم يستحقّ القتال لأجله"¹، في نفس الفترة، تصعد نفوذ المتشدّدين دينيًا في "كينغ لاندينغ" King's Landing عاصمة ويستروس Westeros حيث اضطرت سيرسي لانستر Cersei Lannister للركون إليهم بعد وفاة والدها وهروب تيريون واختفاء أخيها وصغر سنّ ابنتها الملك²، إذا برز نفس المتغيّر في العاصمة وفي مملكة "أمّ التنانين" وهو المحمل الإيديولوجي المتشدّد³، برز عامل حاسم آخر خاصة في عاصمة أمّ التنانين وهو "التقاليد"، اعتاد أهل المدينة على يوم سنويّ للقتال، فرفضت دانريس إقامته بسبب بشاعته، أرسل أصحاب النفوذ رجل لها ليقنعها قائلاً: "على كل الرجال الموت، لكن لا يمكن لك الموت بالمجد، ما سبب قتال الرجال؟ لما عبر أجدادك البحر الضيقّ وغزو الممالك السبع؟ كي يعيش اسمهم للأبد، أولئك الذين يجدون النصر في حضائر القتال لن يصبحوا ملوكاً أبداً ولكن اسمهم سيضلّ للأبد، إنها أفضل فرصة لديهم"، ردّت عليه دانريس قائلة: "أهذا ما تقوله للرجال قبل أن يذهبوا لذبح بعضهم للترفيه؟"، أجاب المبعوث: "مولاتي اليوم هو تقليدي لبدء موسم القتال"، أجاب: "لا أعرف هذا التقليد"، أجاب: "التقاليد هي الشيء الوحيد الذي يجعل هذه المدينة، مدينتك صامدة، بدونهم العبيد والأسياد السابقين لن يكون لديهم قاسم مشترك، لا شيء سوى قرون من الريبة والاستياء، لا أستطيع وعدك بأنّ هذا هو الحلّ لكلّ مشاكلنا، ولكنها مجرد بداية"⁴، وأعقب رفض دانريس إقامة هذا اليوم تمرّد من المقاتلين خلف عددا كبيرا من الموتى في الأسواق والمنازل، حيث اضطرت أخيراً إلى الاعتراف به، بل وحضور بعض مشاهد القتال والزواج من أحد السكان المحليين⁵، في نفس فترة فقدان دانريس السيطرة على منظومة التقاليد وخضوعها لها نسبياً، فقدت سيرسي السيطرة على السلطة الدينية المتشدّدة في العاصمة، بل عُدّبت وأهينت من طرفها⁶، إذا لم يكن الظرف الذي وصل فيه تيريون لعاصمة أمّ التنانين بالسهل، بل تشابك فيه التمرد مع تطوّد مؤسسة دينية متشدّدة مع رفض عدد من الناس زعامة امرأة عليهم، إلى جانب الصراع المرتقب مع عائلة آل لانستر، مثل وصول تيريون للعاصمة الجديدة تأسيس همزة وصل أساسية بين هذه الأزمات مع إمكانية توفير حلّ لها، فهو صاحب تجربة في تسيير دواليب الحكم في زمن الأزمات، وينتمي للعائلة الحاكمة للمالك السبعة، وعانى من الظلم والتمييز مثلها عانت منه دانريس سواء قبل وصولها للسلطة أو خلالها، فشخصية دانريس مشابهة لشخصية تيريون، لما سُئل تيريون عن سبب تحالفه مع أمّ التنانين قال: "الذهب والمجد والكرهية"⁷، إلى جانب إظهارهم لمشروع سياسي يعتمد على دمج السياسة بالأخلاق، إلى جانب تاريخهم المشترك، فشقيق تيريون قتل والد دانريس، ولهذا سعى قاتل الملك⁸.

بالمقابل، احتاج البلاط في أحيان كثيرة لابن خلدون، أنار لنا ابن خلدون بقلمه زوايا مهمة من سيرته، فقد تشابكت حياته مع أزماته عديدة عايشها زمانه مثل لقاءه مع تيمورلنك على أبواب دمشق، عزّل ابن خلدون قبيل هذا اللقاء من وظيفته في البلاط ورغم ذلك ألجأ له، أعجب تيمورلنك بابن خلدون، ولم يخفي ابن خلدون نفسه إعجابه بتيمورلنك، بل يُشبهه، ويكاد

¹ الموسم الخامس الحلقة 1 Game of Thrones

² الموسم الخامس الحلقة 3 Game of Thrones

³ الموسم الخامس الحلقة 6 Game of Thrones

⁴ الموسم الخامس الحلقة 4 Game of Thrones

⁵ الموسم الخامس الحلقة 7-9 Game of Thrones

⁶ الموسم الخامس الحلقة 7-8 Game of Thrones

⁷ الموسم الخامس الحلقة 4 Game of Thrones

⁸ الموسم الخامس الحلقة 8 Game of Thrones

يتطابق، خطاب ابن خلدون تجاه تيمورلنك ما قاله تيريون لانستر لدانيريس في أول لقاء لهما، قال ابن خلدون: "أيّدك الله، لي اليوم ثلاثون أو أربعون سنة أتممت لقاءك، قال لي الترجمان عبد الجبار: وما سبب ذلك؟ فقلت...: أتك سلطان العالم وملك الدنيا وما أعتقد أنه ظهر في الخليقة منذ آدم لهذا العهد ملك مثلك، ولست ممن يقول في الأمور بالجُزاف، فإنّي من أهل العلم، وأبّين ذلك فأقول: إن الملك إنّما يكون بالعصبية وعلى كثرتها يكون قدر الملك"¹، كان حدث لقاء بتيمورلنك "على أبواب دمشق في 1401 الحدث الأكثر درامية والأكثر مشهدة في حياته... كان ابن خلدون إذا على درجة من الشهرة ليثير انتباه الفاتح"².

نلاحظ أن نظرية ابن خلدون حول عمر الدولة تتخلل كل ملحمة الجليد والنار وخاصة علاقة انهيار الدولة بانتشار التبذير وبذخ العائلة الحاكمة، يقول تيريون بعد تقلده منصب وزير المال: "باعتباري وزير المال عليّ حساب التكاليف للأسرة المالكة، وحتى الآن تعتبر نفقات ضخمة، ونحن في حرب"³، بين ابن خلدون في تحليله لأطوار نشأة الدولة انتقالها من البداوة للحضارة إلى الانغماس في الحضارة، من شطف العيش للترف إلى المبالغة في الترف، من الشجاعة للاستكانة وصولاً للجبن، من الاشتراك في المجد للانفراد بالمجد وصولاً لاستعانة صاحب الدولة بالأجانب⁴، تشابهت هذه الخطاطة الخلدونية مع تعامل مؤلف ملحمة أغنية الجليد والنار مع نشأة العائلات والعروش والبلاطات وانهيارها⁵.

استفاد ابن خلدون من إرث عميق غي حقل نصيحة الملوك حيث مثلت تيمة النصيحة والمشورة والعدل ركناً أساسياً لا عند ابن خلدون فقط، بل في التراث الإسلامي عموماً، فالحاكم و"الرعية سواء" لا يتميّز عنهم بشيء⁶، هذا إلى جانب أهمية الإقدام على نصيح الحاكم⁷، وتتخلل هذه الأفكار سلسلة الجليد والنار، فقد تلقى تيريون من والده نصيحة: "هل أشرح لك في درس واحد سهل كيف يسير العالم؟"

العشيرة التي تعطي الأولوية للعائلة ستَهزِم دائماً العشيرة التي تعطي الأولوية لنزوات وأماني أبنائها وبناتها، الرجل الصالح يفعل كلّ ما في وسعه لتحسين مكانة عائلته بصرف النظر عن رغباته الأنانية الخاصة⁸، نفس الوالد وجّه الخطاب إلى ابن ابنته وهو الملك المستقبلي: "ما نوع الملوك ستكون في نظرك؟"، أجاب الولد "ملك صالح"، ردّ عليه جدّه: "ولكن ما الذي يجعل الملك صالحاً، ما هي أهمّ صفات الجودة المهمة للملك(؟)"، أجاب الولد "القداسة"، ردّ عليه جدّه "بايلور المبارك كان مقدّساً وجدير بالثناء، إنه من بني دار العبادة كما أطلق لقب كاهن على طفل ذو 6 سنوات لأنه ظنّ أن الفتى بوسعه عمل معجزات، انتهى به الأمر يموت جوعاً في مقبرته لأن الطعام كان من هذا العالم النجس"، أجاب مرة أخرى الولد: "العدالة؟"، عقّب عليه جدّه: "أجل الملك الصالح يجب أن يكون عادلاً، أوبس الأول كان عادلاً، الجميع هتفوا بإصلاحاته، النبلاء والعامة كانوا سواسية"

¹ عبد الرحمان بن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، مصدر مذكور، ص 396-397.

² عبد السلام شدّادي، مرجع مذكور، ص 189-190.

³ Game of Thrones5 الموسم الثالث الحلقة

⁴ ناجية الوريبي بوعجيلة، حفريات في الخطاب الخلدوني، مرجع مذكور، ص 254.

⁵ أنظر لأسماء العائلات والأفراد وتعدّد سيرورة النشأة والانهيار في: جورج ر. ر. مارتين، أغنية الجليد والنار. 1. لعبة العروش، ترجمة: هشام فهد، دار التنوير، بيروت، بيروت، 2016، ص 1023-1046.

⁶ تاج الدين عبد الوهاب السبكي (ت. 771 هجري)، مُعيد النعم ومُبيد النقم. الإصلاح السياسي والإداري في الدولة العربية الإسلامية، دار الحدّاءة، بيروت، 1983، ص 13-15. أنظر أيضاً: أبي القاسم ابن رضوان الملقّي (ت. 783 هجري)، الشُّهب اللامعة في السياسة النافعة، تحقيق: علي سامي النشار، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، مصر، 2007، ص 83-96.

⁷ تاج الدين عبد الوهاب السبكي (ت. 771 هجري)، مُعيد النعم، مصدر مذكور، ص 15-16؛ أبي القاسم ابن رضوان الملقّي (ت. 783 هجري)، الشُّهب اللامعة، مصدر مذكور، ص 137-139.

⁸ Game of Thrones10 الموسم الثالث الحلقة

ولكن لم يطول عدله تمّ قتله وهو نائم بعد أقلّ من عام بواسطة شقيقه، أكانت العدالة التي يستحقّها بأن يتخلّى عن رعاياه إلى الشّرّ الذي كان سدجا في التعرّف عليه؟"، قدّم الولد إجابة أخرى: "القوّة؟"، أجابه جدّه: "أجل القوّة، الملك روبرت كان قويًا، فاز بالتمرد وحطّم سلالة التارغريين وحضر ثلاثة اجتماعات صغيرة خلال 17 عاما، قضى وقته مع العاهرات وفي الصيد والسكر، حتّى قتله السكر والصيد، إذا لدينا رجل جوع نفسه حتّى الموت، رجل ترك شقيقه يقتله، وآخر يعتقد أن الفوز والحكم نفس الشيء، ماذا ينقصهم جميعا"، أجاب الولد: "الحكمة؟ الحكمة ما تجعل الملك صالحا"، وافقه جدّه قائلا: "أجل، ولكن ما هي الحكمة؟ منزل لديه ثروة كبيرة وأراض خصبة يطلب حمايتك ضدّ منزل آخر لديه جيش قويّ قد يعارضك يوما ما، كيف تعرف القرار الحكيم من الطائش؟ هل لديك أيّ خبرة في الخزائن ومخازن الحبوب وموانئ السفن والجنود؟ بالطبع لا، الملك الحكيم يعرف ما يريد ويترك ما لا يريده، أنت صغير، الملك الحكيم الصغير يُنصت إلى مجلسه ويستجيب لنصائحهم حتّى يصبح بالغا، وأحكم الملوك يستمرّون في الإنصات إليهم طويلا"¹.

يمثّل مشهد محاكمة تيريون في تهمة قتله عمّه الملك (وهو بريء من هذه التهمة) والحوار الذي ألقاه مدافعا عن نفسه لبّ رحي هذه الشخصية، كما تبين لنا من خلال هذه المحاكمة طبيعة الانشقاقات الرهيبة سواء في العائلة الحاكمة نفسها، وبين العائلة الحاكمة وبين بقية العائلات المؤثرة المكوّنة للمملكة، لُققت ضد تيريون عدّة شهادات كاذبة، وقد أخذ الكلمة قائلا: "أريد أن أعترف، لقد أنقذتك (مشيرا إلى والده) وأنقذت المدينة وكل حيواتكم التافهة (مخاطبا أهل المدينة الحاضرين في المحاكمة العلنيّة)، كان عليّ ترك ستانيس يقتلكم جميعا...أجل يا أبي أنا مذنب...أنا مذنب بجرائم أخرى وحشيّة، أنا مذنب لكوني قزما...كنت في محاكمة لهذا السبب طيلة حياتي... لم أقتل جوفري (الملك المقتول) ولكن كنت أتمنّى هذا...تمنّيت أن أكون ذلك الوحش، تمنّيت أن أحظى بسمّ كاف لكل هذه المجموعة (أهل المدينة والشهود)، وسأكون سعيدا بأن أضحّي بحياتي لأشاهدكم جميعا تختنقون"²، ولهذا نلاحظ تشابها بين تمثّل ابن خلدون لسلوك الأفراد في المدن سواء سكانا أو سياسيين، وتصوّر تيريون لهذه الفئة على مستوى "كثرة الشهوات والملاذ الناشئة عن الترف...وأطراح الحشمة" و"التحيل" و"الكذب والمقامرة"، أما السياسة إذا انغمسوا في "النعيم والترف فإن ذلك شهادة فناء لسلطانهم"³، ولا يخفى علينا هنا مشاهد الجنس أو لعب القمار التي حفلت بها سلسلة صراع العروش على مستوى العامة والسياسة، أي "الحضارة المفسدة للعمران"⁴.

تميّز تيريون بميزة أخرى وهي ما يمكن تسميته بحرصه على الصالح العام مع حضور الهاجس الأخلاقي، فعندما ظهر عدوّ مشترك للإنسان "الموتى السائرون" دعا إلى تجاوز الصراعات بين عائلات الممالك السبعة: "نواجه كلنا خطرا...نحن مجموعة أناس لا نحبّ بعضنا...لقد عانينا على أيدي بعضنا وخسرنا أناس نحبّهم على أيدي بعضنا"⁵، "لم تكن أقوامنا صديقة فيما مضى، أمّا الآن فإمّا أن نقاتل معا أو نموت"⁶، كما تكفّل أيضا تيريون بمحاولة إقناع أخته سيرسي بالاستسلام غي حربها مع دانيريس من أجل "تفادي مجزرة...لا أريد أن أرى هذه المدينة تحترق، لا أريد أن أسمع صرخات أطفال يحرقون أحياء"، لكنّه فشل في ذلك حيث احترقت العاصمة كلها بمبانيها وسكّانها⁷، وقد انتهب الحرب على ضفاف مدينة من رماد، ولم ينجح تيريون

¹ الموسم الرابع الحلقة 3 Game of Thrones

² الموسم الرابع الحلقة 6 Game of Thrones

³ نفس المرجع، ص 185-187.

⁴ محمد عابد الجابري، فكارين خلدون. العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، الطبعة السادسة، 1994، ص 233-241.

⁵ الموسم السابع الحلقة 7 Game of Thrones

⁶ الموسم الثامن الحلقة 1 Game of Thrones

⁷ الموسم الثامن الحلقة 4-6 Game of Thrones

في منع الكارثة، بسبب طبيعة الذات البشريّة أو لمميّزات منصب "ناصح" الحاكم (ة) حيث يقتصر دوره على النصح والتحليل ورسم السياسات لا تنفيذها، ختم تيرون دوره في السلسلة بقوله حزين: "لقد خنقت حبيبي، أطلقت على أبي سهما، وخننت مليكتي... لقد اخترت مصيري بعكس شهب كينغ لاندينغ... كان فاريس (سيد الجواسيس) على حقّ، كنت مخطئاً، كان من الغرور أن أتصوّر أنني أستطيع إرشادها، ملكتنا (دانيريس) مجبولة على النّار والدماء... أحرقت مدينة بأكملها... أحيانا يكون الواجب هو موت الحبّ"¹، المهمة الحاسمة الأحيرة التي تكفل بها تيريون هي إقناع جون سنو بإيقاف جنون "دانيريس" عبر قتلها، ثمّ إيصال "بران الكسير" إلى سدّة الحكم، فكافأه بران الكسير بمنصب مساعد الملك، بدأ تيريون يتوجّس من دانيريس بعد أن أطنبت في ممارسة العنف سواء في الحرب أو مع الجنود المهزومين أو ضدّ سكّان المدن خاصّة وأنه حاول كثيراً منعها من ذلك وفشل²، إذا تجاوز الأمر مفهوم الحرب العادلة، قال لها في أحد جلساتهم: "إذا أردنا إنشاء عالم جديد وأفضل فلا أظنّ أن الخداع والقتل الجماعي هو الطريقة الأفضل للبدء... حدّثني مرّة عن تغيير الأوضاع،... إن كنت ستكوّنين ملكة من هذا النوع فكيف أنت مختلفة عن الطغاة الذين سبقوك؟"³، ولهذا حرص ابن خلدون على إبراز ما يقع في آخر الدولة من كثرة الموت بسبب "الهرج"⁴.

مثّل إذا تيريون العمود الفقري لمفهوم الحكمة والعقل في السلسلة، لكن انتهى دوره في السلسلة بإيحاءة دالّة وموحية، حيث لم يُذكر اسمه في كتاب "أغنية الجليد والنار" وهو الكتاب الذي ألفه أحد الحكماء لتأريخ الحروب التالية لموت الملك روبرت⁵، إذا يبقى دائما دور الحكيم والمستشار والناصح حاسما ومُحدّدا ومصيرياً، ولكن مشبوها فيه، وكثيرا ما تمّ التضحية به، واضح إذا أنّ أهمّ التشابكات المعرفيّة بين مقدّمة ابن خلدون وصراع العروش هو علاقة السياسي بالأخلاقي، حيث حارب تيريون لانستر كثيرا لعدم فصل السياسة عن الأخلاق، وهذا الأمر أيضا أكّد عليه كثيرا ابن خلدون من خلال ترسيخ "تصور أخلاقي" وعلاقة استمرار العصبية بنقاء الممارسات الأخلاقيّة⁶.

خاتمة:

تبيّن لنا من خلال البحث التشابه الكبير بين شخصيّة عبد الرحمان ابن خلدون وشخصيّة تيريون لانستر Tyrion Lannister أحد الفاعلين الأساسيين في ملحمة الجليد والنار للروائي جورج ر. ر. مارتن George R. R. Martin والتي تحوّلت إلى سلسلة ناجحة جدّاً.

طرحنا إشكاليّة أساسيّة منذ البداية: هل يمثّل تيريون لانستر ابن خلدون ملحمة الجليد والنار؟ وما هي علاقة نجاح هذه الشخصيّة بما طرّح مؤخّراً في العالم عموماً وفي العالم العربي خصوصاً حول بروز سمات العصور الوسطى الجديدة؟ برز لنا بوضوح تشابهها يكاد يصل للتطابق بين شخصيّة ابن خلدون وتيريون لانستر، خاصّة على مستوى مرتكزات بناء المكانة الاجتماعيّة، أو السيرة الذاتيّة التي تشابك فيها النّجاح بخيبة الأمل والخيانات والعثرات، أو من خلال محاولة كليهما

¹ الموسم الثامن الحلقة 6 Game of Thrones

² الموسم السابع الحلقة 5 Game of Thrones

³ الموسم السابع الحلقة 6 Game of Thrones

⁴ المقدّمة، مصدر مذكور، ص 499.

⁵ الموسم الثامن الحلقة 6 Game of Thrones

⁶ ناجية الوريثي بوعجيلة، حفريات في الخطاب الخلدوني، مرجع سابق، ص 270.

تفسير طبيعة الرهانات الاجتماعية وتوظيف ذلك في ممارستها للسياسة كمناصحين للملوك والأمراء، مع تركيزهما على أهمية العدل وعدم فصل الأخلاق عن السياسة.

من ناحية أخرى، يبرز لنا نجاح هذه السلسلة تشوّف المشاهدين إلى زمن مغاير لزمانهم، أي التوق إلى مرتكزات أساسية ميّزت العصور الوسطى خاصة الحضور الطاغي لمؤسسة العائلة والعيش في المجتمعات المحلية الضيقة، وهذا ما أكّده أيضا ابن خلدون عبر رهانه الحيوي على مصطلح "العصبية"، يتميّز زمننا الحاضر بطغيان شديد للفردانية والمصلحة والعلاقات التعاقدية، وهذا ما جعل المشاهد يتعلّق بشخصية مثل تيريون لانستر. الرغبة أساسا في الحفاظ على تماسك العائلة مع عدم ظلم بقية العائلات، أي أخلة الحياة السياسية، وتجنّب الظلم باعتباره "مؤذن بخراب العمران، نفس هذه الرهانات تشكّل ركنا أساسيا في الشخصية القاعدية في العالم العربي التي ساهم ابن خلدون في صياغتها، وهذا ما أكّد عليه هذا البحث أي السعي إلى إثبات هذا الإرث الخلدوني، وأهليته لاستثماره في الحاضر والمستقبل، بل والاعتماد عليه في النقاش حول نظرية "العصور الوسطى الجديدة".

نتساءل أخيرا: هل قدر على وظيفة "المستشار" أي يعيش الخيبة والخيانة، والالتجاء إليه فقط زمن الأزمات؟ يحتاج هذا السؤال إلى بحوث أخرى، لكن يمكن القول أن زماننا يحتاج إلى شخصية "الحكيم" الساعي دائما إلى "العدل" وعدم خراب "العمران"، أي شخصية مشابهة لابن خلدون وتيريون لانستر.

قائمة المراجع:

1. أبي القاسم ابن رضوان الملقب (ت. 783 هجري)، الشّهب اللامعة في السياسة النافعة، تحقيق: علي سامي النشار، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، مصر، 2007.
2. تاج الدين عبد الوهاب السبكي (ت. 771 هجري)، مُعيد النعم ومُبيد النقم. الإصلاح السياسي والإداري في الدولة العربية الإسلامية، دار الحداثة، بيروت، 1983.
3. جورج ر. ر. مارتن، أغنية الجليد والنار. 1. لعبة العروش، ترجمة: هشام فهد، دار التنوير، بيروت، 2016.
4. عبد الرحمان بن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، 2004.
5. وليّ الدين عبد الرحمان بن محمد بن خلدون، مقدّمة ابن خلدون، حقّق نصوصه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، الطبعة الأولى، 2004.
6. أبو يعرب المرزوقي، إصلاح العقل في الفلسفة العربية: من واقعية أرسطو وأفلاطون إلى اسمية ابن تيمية وابن خلدون، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، 1996.
7. أحمد عبد السلام، ابن خلدون وقراءه، تعريب: الصادق الميساوي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون: بيت الحكمة، قرطاج، 2020.
8. أكسل هونيث، الصراع من أجل الاعتراف: القواعد الأخلاقية للمأزق الاجتماعية، ترجمة: جورج كتورة، المكتبة الشرقية، بيروت، 2015.
9. إيف لاکوست، العلامة ابن خلدون، ترجمة: ميشال سليمان، دار الفارابي، بيروت، 2017.

10. ديفيد فيشر، الأخلاقيات والحرب: هل يمكن أن تكون الحرب عادلة في القرن الحادي والعشرين، ترجمة: عماد عواد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، عدد 414، 2015.
11. روبرت أرون، ابن خلدون: سيرة فكرية، ترجمة: عبد الله فجير العمري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2022.
12. سعد غراب، ابن عرفة والمذهب المالكي بإفريقية في القرن 8 هـ/ 14 م، ترجمة: نجم الدين الهنتاتي، معهد تونس للترجمة، تونس، 2022 (2 أجزاء).
13. عبد الرحمان بن محمد الحضرمي الإشبيلي، رحلة ابن خلدون، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004.
14. عبد السلام شدادي، ابن خلدون: الإنسان ومنظر الحضارة، ترجمة: حنان قصّاب حسن، المكتبة الشرقية، بيروت، 2016.
15. علي الورد، منطلق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته، دار كوفان للنشر، بيروت، الطبعة الثانية، 1994.
16. ليليا بن سالم، "التحليل الانقسامي لمجتمعات المغرب الكبير: حصيلة وتقويم"، في: الأنثروبولوجيا والتاريخ. حالة المغرب العربي، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1988.
17. محمد الخضر حسين، حياة ابن خلدون ومثل من فلسفته الاجتماعية، مؤسسة هنداوي، مصر، 2013.
18. محمد الفقي، "المستشارون في لعبة العروش"، مجلة العربي، الكويت، العدد 767، أكتوبر 2022.
19. محمد حمشي/عادل زقاغ، "عن السياسة ما بعد الدولية: تعايش بين نظامين أم عصر وسيط جديد"، سياسات عربية، العدد 54، المجلد 10، (كانون الثاني-يناير 2022).
20. محمد حمشي، "نظرية التعقد في العلاقات الدولية: النظام الدولي كنظام معقد وشواشي السلوك"، المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، العدد 484 (حزيران/يوليو 2019).
21. محمد حمشي، مدخل إلى نظرية التعقد في العلاقات الدولية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة/بيروت، 2021.
22. محمد عابد الجابري، فكر ابن خلدون. العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة السادسة، 1994.
23. ناجية الوريبي بوعجيلة، حفرات الخطاب الخلدوني: الأصول السلفية وهم الحدأة العربية، دار الجنوب للنشر، تونس، 2008.
24. ناصيف نصّار، الفكر الواقعي عند ابن خلدون: تفسير تحليلي وجدلي لفكر ابن خلدون في بنيته ومعناه، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1981.
25. سلسلة صراع العروش Game of Thrones (8 أجزاء).

26. Abdesselam Cheddadi. "Le système du pouvoir en Islam d'après Ibn Khaldûn". In: Annales. Economies, sociétés, civilisations. 35^e année, N. 3-4, 1980.
27. Arnaud Blin, « Tamerlan, conquérant de l'éphémère », in: Arnaud Blin, Les grands capitaines, Perrin. Collection : Tempus, Paris, 2020.
28. Cyrille Sardais, Marine Agogué, « La fin du charisme, la chute du personnage de Daenerys dans la série Game of Thrones », Revue française de gestion, 2022/2 (N° 303).
29. Despina Kakoudaki, "A Virtual Winter: On the Absence of Ecology in Game of Thrones", Film Quarterly, University of California Press, Vol. 73, No. 1 (FALL 2019).
30. Florian Besson, Justine Breton, « Tous les hommes doivent mourir, mais nous ne sommes pas des hommes : La place des femmes », in: Florian Besson, Justine Breton, Une histoire de feu et de sang: Le Moyen Âge de Game of Thrones, Presses Universitaires de France, 2020.
31. Florian Besson, Justine Breton, « Les pauvres ont toujours été la proie des puissants, c'est là la base du pouvoir: Exercer le pouvoir à Westeros », in: Florian Besson, Justine Breton, Une histoire de feu et de sang: Le Moyen Âge de Game of Thrones, Presses Universitaires de France, 2020.
32. Hoedaert, Loïc. Sciences politiques et relations internationales dans "Game of Thrones" : Légitimité, puissance et stratégie au cœur de la course au trône. Faculté des sciences économiques, sociales, politiques et de communication, Université catholique de Louvain, 2021. Prom. : Struye De Swielande, Tanguy.
33. Inbar Shaham, "The Wheel of Power in HBO's Game of Thrones", Mythlore, Vol. 40, No. 2 (Spring/Summer 2022).
34. Jacqueline Sublet, Le voile du nom. Essai sur le nom propre arabe, Paris, PUF. coll. Écriture, 1991
35. KellyAnn Fitzpatrick, Neomedievalism, Popular Culture, and the Academy: From Tolkien to Game of Thrones, Boydell and Brewer, D. S. Brewer. Series: Medievalism, 2019.
36. Laroussi Amri, La tribu au Maghreb médiéval: pour une sociologie des ruptures. Université de Tunis 1, 1997.
37. Marianne Chaillan, « Les séries télévisées : un laboratoire de philosophie morale? », Revue internationale de philosophie, 2022/3 (n° 301).
38. Patricia Monk, "Tyron Lannister: A Fulcrum of Balance in George R.R. Martin's A Song of Ice and Fire", Mythlore, Vol. 36, No. 2 (132) (Spring/Summer 2018).
39. Paul Veyne, Le Pain et le Cirque. Sociologie historique d'un pluralisme politique, Seuil, Paris, 1976

40. Sandra Laugier, Spoilers, "Twists, and Dragons: Popular Narrative after Game of Thrones", in: Ian Christie and Annie van den Oever, Stories, Amsterdam University Press, Series: The Key Debates: Mutations and Appropriations in European Film Studies, 2018.
41. Shiloh Carroll, Medievalism in A Song of Ice and Fire and Game of Thrones, Boydell and Brewer, D. S. Brewer: Series: Medievalism, 2018.
42. Thomas E. Lambert, "Game of Thrones, Game of Class Struggle, or Other Games? Revisiting the Dobb—Sweezy Debate", World Review of Political Economy, December 2020, pp.455- 475
43. Thomas Piketty, A Brief History of Equality, Translated by Steven Rendall, Harvard University Press, 2022.
44. Tristan Brossat and Louise Delavier, "Game of Thrones : Violence and Sex in the Middle Ages", Esprit, No. 407 (8/9) (Août- septembre 2014).

La restauration des monuments archéologiques: Arc de Volubilis comme exemple

ترميم المباني الأثرية: قوس وليلي نموذجا

Heddad Mounir, Enseignant Chercheur/Maroc

حدّاد منير/أستاذ باحث، المغرب

ملخص :

يطرح هذا المقال إشكالية التقنيات والأساليب المعتمدة في المحافظة على التراث الثقافي المادي في شمال إفريقيا إبان الفترة الاستعمارية. وقد تطرقنا هنا إلى ترميم البنيات الأثرية وخاصة قوس النصر بوليلي الذي يعتبر من بين الترميمات الأولى في الفترة الكولونيالية (1930-1934) وستمكنا هذه الدراسة من التعرف على ظروف سير أشغال الترميم و تتبع تطور هذا الأخير في المغرب، وأخيرا معرفة مدى احترام المعايير الدولية في الترميم.

الكلمات المفتاحية: ترميم، قوس النصر، وليلي.

Résumé :

Cet article soulève une problématique majeure concernant les méthodes et les techniques de conservation du patrimoine matériel utilisées dans l'Afrique du Nord pendant l'époque coloniale. On a abordé ici le sujet de la restauration des structures archéologiques (Monuments historiques). On a choisi d'étudier le cas de la mise en valeur de l'arc de « Caracalla » de volubilis qui a eu lieu entre (1930-1934), pour comprendre les conditions des travaux de restauration à l'époque, et suivre l'évolution de cette science dans notre pays le Maroc et en Afrique du Nord en générale, et savoir si le projet a respecté les normes de restauration déterminées par les chartes internationaux.

Mots clé : Restauration, Arc de Caracalla, volubilis.

I-Introduction :

Les arcs de Triomphe ont été toujours considérés comme un symbole de victoire et de grandeur et d'immortalité dans les mœurs traditionnels des Romains. C'est pour cela que la plupart des colonies Romaine en Afrique du Nord sont marquées par ces monuments¹. Et malgré leur dégradation à travers le temps, on trouve que les descendants des Romains « les français » ont fait appel à la restauration pour mettre en valeur ces monuments historiques afin de les sauver. Effectivement ce n'est pas la vraie cause pour exécuter ces projets là, mais l'idologie du colonisateur était d'exploiter les projets de restauration des arcs de triomphe pour justifier leur présence comme colonisateurs Protecteurs au Maroc, qui vont conserver l'héritage de leur antécédents les Romains. Ont-ils réussi à passer le message par ces projets ? Ont-ils respecté les normes de restauration recommandée par les conventions internationales ?

Cet article vient de faire une étude détaillée sur le projet de la restauration de l'arc de triomphe de Volubilis afin de pouvoir répondre aux problématiques soulevées avant.

II-Bref aperçu historique sur le monument :

L'arc de caracalla de Volubilis était construit en 217 ap.j-c, et était dédié du gouverneur de la région « Marcus Aurélius Sébastinos » à l'Empereur Romain « Caracalla »². Il se compose d'un grand arc central (Sa largeur est de 5m et 87 cm et sa hauteur à peu près 8 m)³ dans ses cotés se trouve une niche placée entre deux piédestal. En haut de l'arche centrale se trouve une inscription suivie d'une corniche, c'est un arc d'une seule baie, qui se caractérise par la simplicité de sa décoration architecturale⁴. voir l'image ci-dessus.

¹ - C'est à partir de l'époque de « Trajane » que L'Afrique du Nord avait connu les arcs triomphaux. A peu près de 19 arc de triomphe bâti en Afrique du Nord, et surtout sous le règne de « Caracalla » (10 arcs). Voir :

A –M - L eydier – Bareil, Les arcs de triomphe dédiés à Caracalla en Afrique Romaine, Thèse de doctorat, université Nancy 2, 2006, Nancy, pp. 14- 35-36.

² - L. Chatelain, Guide du visiteur de volubilis, Rabat, ED, F. Moncho, 1933, p. 19.

³ - R. Thouvenot, Volubilis, Paris, Ed, Les belles Lettres, 1949, p. 39.

⁴ -P. Gros, L'architecture Romaine au début du III siècle av. jc à la fin du Haut-Empire, , Paris, 2ème éd, Franc Quercy, 2002, p. 80.

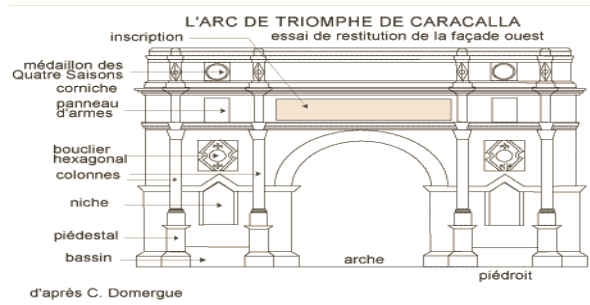


Image : les éléments architecturaux de l'arc de triomphe de caracalla. Source : - <https://sitevolubilis.com/l'arc-de-triomphe/> consulté le 24/1/2021.

L'aspect originale de l'arc de triomphe était inspiré des dessins de « Jean Windus » qui avait visité le site en 1721 ap.jc. dans une mission Anglaise chargée du rachat des prisonniers Anglais du Sultan « Moulay Ismail ». Dans la même année le prisonnier « Boyde » avait dessiné ce monument, et il y'a un autre dessin de cet édifice réaliser par le baron Autrichien « Van Augustin ».

Le séisme qui avait frappé « Lisbonne » en 1755 ap.jc, avait détruit la plupart des éléments de cet édifice, et « Louis Chatelain » signale qu'il avait été victime du tremblement de terre qui avait eu lieu en 1802 ap.jc¹.



Image de l'arc de triomphe de Volubilis. Source : Archive de la conservation du site.

III-La restauration de l'arc de triomphe.

C'est le plus grand projet de restauration effectué au site de Volubilis. Les travaux avaient commencé en 1930 ap. jc, jusqu'au 1934 ap. jc. Il faut noter qu'avant le lancement des premières fouilles à volubilis en Mai 1915 ap. jc, On voyait seulement des restes de quelques éléments de construction de la basilique et l'arc de triomphe, cela signifie la procédure de la reconstruction de l'édifice. La première tâche c'était le dégagement de la poussière pour déterminer tous les éléments architecturaux de l'arc du triomphe. Louis Chatelain avait

¹ - L. Chatelain, Op.cit, p. 19.

signalé dans un article publié en 1931 ap. jc, que la restauration de l'arc de Caracalla avait subi la même méthode utilisée dans la consolidation de la basilique¹.

L'équipe de restauration avait placé premièrement un échafaudage qui entourait le périmètre de l'édifice, ensuite on ramassait les blocs de pierre qui appartenaient à l'édifice et on les numérotait avec grande précision, et on les posait près du monument afin de les utiliser dans la restauration. Puis on consolidait le sol, et enfin mettre les blocs de pierre en respectant l'ordre originale de la pose². En ce qui concerne la voûte, on devait ajouter les pièces de voussoirs manquantes, et si cette dernière n'était pas complète on faisait appel au ciment pour compléter les parties manquantes, ou bien reconstituer d'autres voussoirs qui possèdent les mêmes dimensions que l'originaires³. Le but c'était de créer une compatibilité avec les autres éléments de la voûte. Et consolidé cette structure qui porte un grand soutien à l'arc de triomphe. Toutes les voussoirs trouvées ou reconstituées devaient être rassemblées sous forme d'un demi-cercle et devaient être posées sur un béton armé en fer. Les images ci-dessus nous montrent que les travaux ont débuté de la façade occidentale. (Voir l'image).

On possède une correspondance⁴ envoyée par l'architecte français « Adrien Lafourg » au conservateur du Volubilis le 22 juin 1929 ap. jc, à propos des matières qui faut préparer pendant la restauration.

On considère que ce document est très important car il est le seul indice sur les composants du mortier utilisé dans le projet de restauration de l'arc de Caracalla.

D'après ce document la préparation du mortier de ciment concernant les fondations avaient respecté les normes suivantes : 800 litres de gravier de petite taille, 400 litre de sable, 400 kg de ciment), le document signale l'utilisation de la chaux hydraulique 300 kg. L'usage d'un gravier de 0,06 d'épaisseur, pour chaque m³ sable, pour que l'épaisseur de la couche obtenue ne dépasse pas 0,15.

Louis Chatelain a avoué que le projet réalisé n'était pas une restauration mais une consolidation, un soutien au monument afin d'arrêter sa dégradation par le temps⁵.

¹ - Ibidem.

² - Cette technique s'appelle l'anastylose, utilisée avant dans d'autres travaux. Exp. Dans la restauration de l'arc de Leptis Magna en 1914 par une équipe Italienne. Voir. A – M - L Eydiar – Bareil, Les arcs de triomphe dédiés à Caracalla en Afrique Romaine, Thèse de doctorat, université Nancy 2, 2006, Nancy, p. 134.

³ - Louis Chatelain signale que l'usage du ciment avait deux objectifs, le premier c'était d'obtenir des voussoirs solides et le deuxième c'était de conserver la cohérence entre les voussoirs originales et les autres qui venaient remplacer les manquantes. Voir : - L. Chatelain, L'arc de triomphe de Caracalla, P.S.A.M, fasc. 3, 1937, p. 20-21.

⁴ - Voir l'archive du site de Volubilis, 25/29- n. 8366.

⁵ - Voir ibidem.



Image : les premiers pas de la restauration de l'arc de triomphe. Source. Archive du site de Volubilis.

L'utilisation des échafaudages était très connu dans les travaux de restauration des monuments historiques. Comme l'image ci-dessus le montre le montage d'un échafaudage est un travail très compliqué et il demande des vrais connaisseurs. On constate que le responsable du projet avait fait appel à des spécialistes Marocain pour réaliser ce travail.

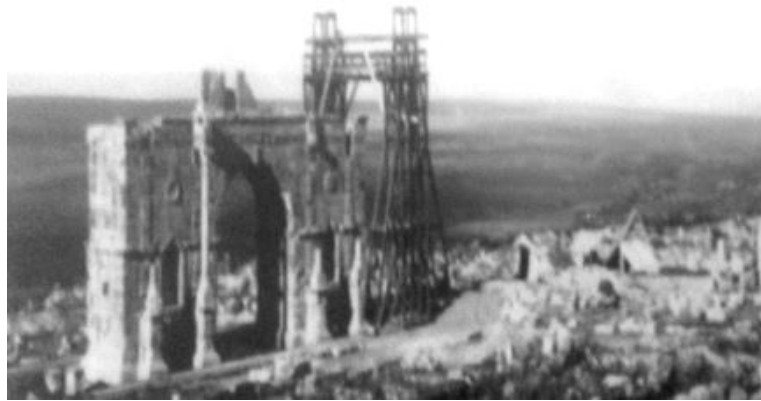


Image : Forme d'échafaudage utilisé dans la restauration de l'arc de triomphe. Source . Archive de volubilis.

IV-Les critiques :

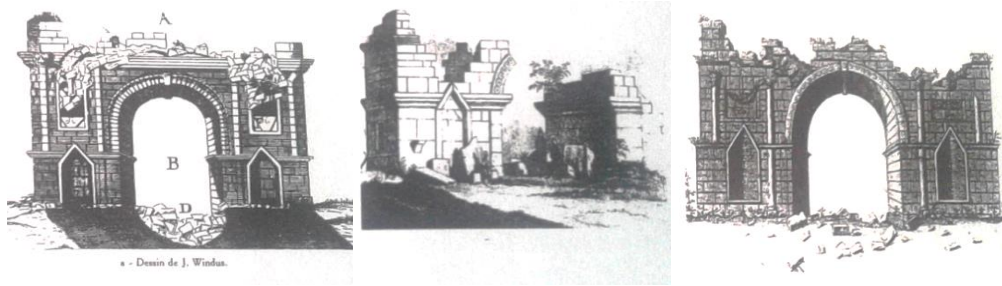
La restauration de l'arc de triomphe par Louis Chatelain(1930-1934) a créé une grande polémique entre le responsable du projet et les experts de la restauration des monuments historiques. C'est « Maurice Euzennat » qui a signalé que les travaux de restauration n'étaient pas parfaits. Claude Domergue a noté que ces travaux

était tout à fait différente à la forme originale de l'arc de triomphe¹. Il a justifié son point de vue en se basant sur les dessins de l'arc de Caracalla effectués par « John Windus » et « Henri Boyde »².

« Armand Luquet » a partagé la même opinion en disant que le projet n'était pas complet³. Raymond Thouvenot a noté dans son article publié sur la porte sud orientale du site de Volubilis, que « Louis Chatelain » avait décidé après la fin des travaux de restauration de l'arc de triomphe, de continuer les mêmes travaux pour les portes et les enceintes du site, Mais « Raymond Thouvenot » a déclaré que l'étude effectuée par « Louis Chatelain » n'avait pas pris en conscience les plans et les dimensions exactes de chaque structure archéologique⁴.

Maurice Euzennat a chargé « Claude Domergue » en 1958 ap. jc, de faire une étude sur l'arc de Caracalla, en bénéficiant des facilités proposées par le conservateur du site à l'époque « Armand Luquet ». Le projet était d'effectuer une reconstitution de la façade occidentale de l'édifice.

Claude Domergue a affirmé d'avoir trouvé des obstacles pendant ses recherches, tel que l'absence des documents signalant les travaux de fouille effectués dans le site en 1915 ap. jc et 1917 ap. jc. Même les documents concernant la restauration de l'arc de triomphe étaient absents⁵. Cela rendait la tâche difficile. Mais pour remplir ces lacunes, il a fallu chercher dans les rapports et les journaux des anciens voyageurs étrangers qui ont visité le Maroc. On cite « John Windus » (1721 ap. jc) et « Henri Boyde » (1721 ap. jc) et « Van Augustin » (1830 ap. jc) qui avaient dessiné l'arc de triomphe avant sa détérioration à cause du séisme de 1755 ap. jc. Voir les images ci-dessus.



Images : dessins de l'arc de triomphe. Source : Euzennat(M), op.cit, p. 329

La question posée par « Claude Domergue » c'était pourquoi « Louis Chatelain » n'avait pas utilisé ces importants documents pour ne pas commettre des erreurs ? Claude Domergue avait signalé quelques fautes

¹ - C. Domergue, L'arc de triomphe de Caracalla à Volubilis, B.C.T.H, 1963-1964, p. 201

² - M. Euzennat, Deux voyageurs anglais à Volubilis, in Hespéris, XLIII, 1956, p.329

³ - A. Luquet, La basilique judiciaire de Volubilis, BAM, VII, 1967, p.437.

⁴ - R. Thouvenot, Une porte de l'enceinte romaine de Volubilis, BAM. 7, 1967, p. 607.

⁵ - C. Domergue, Op. Cit, p.201-229.

de la restauration de l'arc de triomphe de Volubilis. Premièrement, la hauteur originale de l'édifice était tout à fait différente de la hauteur actuelle. Deuxièmement, beaucoup d'éléments de décoration de l'édifice étaient mal placés ou négligés dans la restauration¹.

Malgré l'absence de plusieurs documents concernant le projet, Claude Domergue avait pu lire le registre de correspondance de Volubilis (1915-1918) et obtenir le cahier des rapports de la direction de conservation du site Volubilis (1926-1934). Ces documents avaient donné des idées sur les travaux de fouille dans le site. Les photos avaient montré l'états de l'édifice avant sa restauration. Claude Domergue avait comparé le modèle de l'arc de triomphe de Volubilis avec celle de l'Europe, et ensuite il avait effectué un plan de l'édifice en rectifiant les erreurs commises par « Louis Chatelain » concernant la hauteur qui devait être 13,75 m. Ensuite il avait ajouté les décors non utilisés dans la restauration de 1930 ap. jc. Voir le schéma ci-dessus.

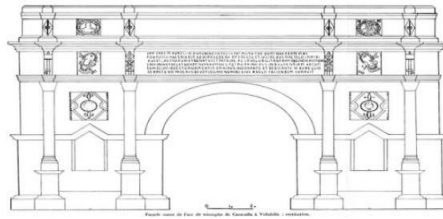


Schéma de l'arc de triomphe de Volubilis effectué par Claude Domergue. Source : C. Domergue, op.cit, p.204.

V-Conclusion :

Louis Chatelain a parlé de la consolidation et le soutien de l'édifice non pas de sa restauration. C'est-à-dire que sa tâche était de sauver le monument qui était sur le point de s'effondrer². Il considère la restauration c'est compléter la partie manquante dans les structures archéologiques, et reconstruire l'édifice en utilisant tous ces éléments architecturaux. Mais il n'a pas respecté cette dernière à cause de l'usage des éléments qui n'appartiennent pas à l'édifice. Il n'a pas respecté la charte d'Athènes dans le huitième article qui insiste sur la nécessité d'effectuer des études, des analyses, des recherches, avant de restaurer.

Il n'a pas pris en considération le neuvième article de la charte qui oblige les restaurateurs à rédiger toutes les informations concernant les travaux de maintenances ou de restauration et de les publier.

Louis Chatelain n'avait pas réclamé sur l'erreur commise par les artisans chargés de la reconstruction des motifs. Deux décors différents dans les deux façades de l'édifice. Selon lui, si le travail conserve l'esthétique du monument, alors il n'y a pas de problème. Ce point de vue nous mène à l'école Française de restauration de

¹ - C. Domergue, Op, cit, p. 208.

² « J'évite avec soin le terme de restauration qui doit en principe être rigoureusement proscrit, du moins en archéologie antique, et seul le mot de consolidation exprime comme il convient le travail auquel il faut procéder... ». Chatelain(L), Op, cit, p. 20.

« Violet Le Duc » qui pense que l'aspect final, l'esthétique du monument et le plus important dans les travaux de restauration. Louis Chatelain avait utilisé le ciment dont la charte d'Athènes ne l'avait pas interdit. Malgré la valeur historique et artistique de l'arc de triomphe de Volubilis, on ne croit pas que la restauration de cet édifice tenait à protéger ces valeurs-là. Mais cette action était bénie par la politique culturelle du colonisateur Français. La faite de restaurer l'arc de triomphe de Volubilis c'est dire aux Marocains que les descendants des Romains sont revenus à leur colonie natale. Beaucoup de personnages politiques Française avaient visités Volubilis, on cite par exemple le Maréchal « Lyautey » et le président Français.

Beaucoup d'expert en restauration ont trouvé que la restauration de l'arc de Caracalla était un grand projet qui avait marqué l'histoire de la restauration au Maroc. Le chercheur « El arbi El Mesbahi » voit qu'on peut procéder à la restauration de la restauration. C'est-à-dire rectifier les erreurs commises dans les premiers travaux. C'est une méthode appliquée par les espagnoles dans le cas du palais « Alhambra » à Granada¹.

On croit qu'il faut faire une relecture de cette restauration pour bien comprendre les interventions anciennes, en utilisant des méthodes scientifiques et des appareils technologiques. On peut corriger les erreurs de « Louis Chatelain », pour protéger les valeurs historiques, artistiques, archéologiques... de l'arc de triomphe de Caracalla.

Bibliographie :

Ouvrages :

- Gros(P), L'architecture Romaine du début du 3ème siècle av.jc à la fin du Haut-Empire, Paris, 2ème éd, Franc Quercy, 2002.
- Chatelain(L), Guide du visiteur de Volubilis, Rabat, ED, F. Moncho, 1933.
- Thouvenot(R), Volubilis, Paris, Ed, Les belles Lettres, 1949.

Articles :

- Chatelain(L), L'arc de triomphe de Caracalla, P.S.A.M, fasc. 3, 1937.
- Domergue(C) , L'arc de triomphe de Caracalla à Volubilis, B.C.T.H, 1963-1964.
- Euzennat(M), Deux voyageurs anglais à Volubilis, in Hespéris, XLIII , 1956.
- Luquet(A) , La basilique judiciaire de Volubilis, BAM, VII , 1967.
- Thouvenot(R), Une porte de l'enceinte romaine de Volubilis, BAM. 7, 1967.

¹-voir : www.Alinsap.org.ma/2013.

Thèses :

- Leydier – Bareil (A-M), Les arcs de triomphe dédiés à Caracalla en Afrique Romaine, Thèse de doctorat, université Nancy 2, 2006, Nancy.

Site internet :

. www. Alinsap.org.ma /2013.

<https://site.volubilis.com/l-arc-de-triomphe/> consulté le 24/1/2021.



DOI Prefix:10.33685/1316

جميع الحقوق محفوظة © لمركز جيل البحث العلمي